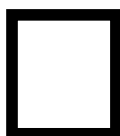
البيان السديد
لشرح حائية ابن أبي داود

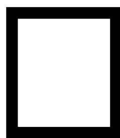
للشيخ

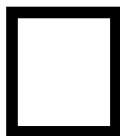
عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

البيان السني

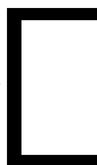
شرح حائية ابن أبي داود







عبد العزيز الطريفي



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي رفع السماء بلا عمد، وأرسى الأرض على ماء جمد، وأرسل لنا نور الهدى بأصدق الكتب والأعظم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، خاتم النبيين، محمد بن عبد الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

إن علم العقيدة هو ركن الإسلام المتين، وجذوره العميقة التي تستند إليها الشريعة الغراء، فهو العلم الذي يُعرِّف الإنسان بربه، ويُثَبِّت في قلبه حقائق الإيمان، ويُوضِح له سُبُلَ النجاة والفوز برضا الرحمن. ولقد تفنن العلماء عبر العصور في تأصيل هذا العلم الشريف، وبسط مسائله، وتوضيح أصوله وفروعه، بما يعين الأمة على الثبات في مواجهة فتن الشبهات والشهوات.

ومن بين أعلام العلماء الذين برعوا في هذا الفن، يبرز الإمام الجليل ابن أبي داوود - رحمه الله - الذي نظم عقيدة السلف الصالح في منظومته الفريدة "الحائية"، فجاءت كالبدر في تمامه، تجمع بين جزالة اللفظ وقوة المعنى، وبين سهولة الحفظ وعمق الفهم. وقد نالت هذه المنظومة القبول والتقدير من العلماء وطلبة العلم، فاحتفوا بها شرحاً وتعليقاً.

وفي هذا السياق، يأتينا شيخنا الفاضل، عبد العزيز الطريفي - حفظه الله - بشرحه النفيس لهذه المنظومة، فيضع بين أيدينا درةً من درر العلم، وزهرةً من بساتين الحكمة. فقد تميز شرحه بعمق التحليل، وسداد القول، وربط المتن بأدلة الكتاب والسنة، وبيان معالم العقيدة الصافية النقية، والرد على شبهات المخالفين بما يدحض الباطل ويقيم الحجة.

نضع بين أيديكم هذا السفر الجليل، عسى أن يكون نوراً لمن استضاء به، وهدايةً لمن اقتفى أثره، ودليلاً لمن سار على نهجه. نسأل الله العلي القدير أن يجعله في ميزان حسنات شيخنا الطريفي، وأن ينفع به الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها.

والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

***

ترجمة للشيخ الطريفي

الشيخ عبد العزيز بن مرزوق الطريفي.

اسمه ونسبه :عبد العزيز بن مرزوق بن صالح الطريفي.

مولده ونشأته :وُلِد في 7 ذو الحجة 1396 هـ (29 نوفمبر 1976م في السعودية.

تحصيله العلمي:

- **بدأ حفظ المتون العلمية في سن الثالثة عشرة، وكان أول متن حفظه هو "البيقونية" في علم المصطلح.**
- **قرأ وحفظ العديد من الكتب في سن الخامسة عشرة، منها "تفسير ابن كثير"، "زاد المعاد"، "سيرة ابن هشام"، و"فتاوى ابن تيمية."**
- **حصل على بكالوريوس في الشريعة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض.**

شيوخه :تتلمذ على أيدي كبار العلماء في المملكة العربية السعودية، وحضر دروساً علمية لدى العديد من الشيوخ والمحدثين.

مسيرته المهنية:

- **عمل كباحث شرعي في وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد في السعودية.**
- **له العديد من المحاضرات والدروس العلمية في مختلف العلوم الشرعية، وخصوصاً في علم الحديث والعقيدة.**

***

مؤلفاته:

1. **صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم -مكتبة دار المنهاج.**

2. التحجيل في تخريج ما لم يخرج من الأحاديث والآثار في إرواء الغليل -مكتبة الرشد.
3. العقلية الليبرالية في رصف العقل ووصف النقل -دار الحجاز.
4. زوائد سنن أبي داود على الصحيحين والكلام على علل بعض حديثه -مكتبة الرشد.
5. الاختلاط: تحرير وتقرير وتعقيب.
6. كتاب توحيد الكلمة.
7. الفصل بين النفس والعقل -دار المنهاج.
8. أذكار الصباح والمساء رواية ودراية.
9. التقرير في أسانيد التفسير -دار المنهاج.
10. المغربية في شرح العقيدة القيروانية -دار المنهاج.
11. التفسير والبيان لأحكام القرآن.
12. المسائل المهمة في الأذان والإقامة.
13. الخراسانية في شرح عقيدة الرازيين.
14. أسطر في النقل والعقل والفكر.

15. أتدري ما الله.

16. الحجاب في الشرع والفطرة بين الدليل والقول الدخيل.

17. صفة وضوء النبي صلى الله عليه وسلم شرح حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

18. تعظيم الله تعالى وحكم شاتمه.أسلوبه وميزاته:

19. تميز الشيخ الطريفي بقوة حفظه وسعة اطلاعه على كتب التراث الإسلامي.

20. عُرف بقدرته على الربط بين النصوص الشرعية وأقوال العلماء، وشرح المسائل بأسلوب واضح ودقيق.

أثره وتأثيره:

له تأثير كبير على الساحة الدعوية والعلمية في العالم الإسلامي.

استفاد من علمه العديد من الطلاب والباحثين في مجال العلوم الشرعية.

نسأل الله أن يحفظه ويبارك في علمه وينفع به الأمة الإسلامية.

ترجمة ابن أبي داود

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

ففي هذه المجالس نبتدئ بإذن الله تعالى بشرح أوائل حائية ابن أبي داود عليه رحمة الله، وهذه الحائية تبين مجمل اعتقاد أئمة السلف من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم وسلك هديهم، والحائية قد جاءت بالمجمل في الاعتقاد وعددها ثلاثة وثلاثون بيتاً، وقد زيد في بعضها من بعض الأئمة عليهم رحمة الله تعالى كـابن شاهين وابن البنا وغيرهم.

وقد أراد المصنف عليه رحمة الله أن يبين في هذه العقيدة ما كان عليه السلف والأئمة من أهل عصره، ولذلك قد ثبت عنه أنه قال بعد كتابته لهذه المنظومة، قال: وهذا ما أقول وهذا ما يقوله أبي وهذا قول سائر العلماء، ومن قال خلاف ذلك فقد كذب.

والمؤلف عليه رحمة الله هو بالمقام والمكان المعروف، فهو عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني أبو بكر صاحب المصنفات الشهيرة إمام حافظ جليل، له قدر معروف في السنة والاتباع وكذلك في الحفظ

والدراية والرواية، وقد زكاه العلماء عليهم رحمة الله تعالى عامة، وهو من علماء القرن الثالث وأوائل الرابع فولد عام مائتين وثلاثين للهجرة وتوفي عام ثلاثمائة وستة عشر عن ست وثمانين سنة، وهو **ابن أبي داود** صاحب السنن، وقد اعتنى به والده وارتحل به وسافر به وطاف به البلدان ليتلقى عن العلماء.

كلام العلماء في ابن أبي داود

وقد أثنى عليه سائر العلماء ولم يطعن به أحد منهم، وقد جاء عن **أبي داود** عليه رحمة الله تعالى صاحب السنن أنه أشار إليه وقال: كذاب، وقد روي تكذيبه أيضاً عن **الأصفهاني** عليه رحمة الله.

والمراد بالتكذيب: هو ورود الخطأ عليه من غير تعمد، وهي لغة عند العرب وقد اختص بها أهل الحجاز، وهذا وارد في أشعار العرب، وجاء على لسان النبي عليه الصلاة والسلام ولسان أصحابه أنهم يطلقون الكذب ويريدون به الخطأ من غير تعمد، ولذلك يقول الشاعر:

كذبتك عينك أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالاً

فالعين لا تتعمد الكذب ولكنها توهم صاحبها، ولذلك يقول **أبو طالب**:

كذبتم وبيت الله نبزى محمدا ولما نطاعن دونه ونناضل

وجاء عن النبي عليه الصلاة والسلام كما في السنن وأصل الحديث في الصحيحين، لما أفتى أبو السنابل عليه رضوان الله تعالى سبيعة الأسلمية بخلاف السنة، قال النبي عليه الصلاة والسلام) :كذب أبو السنابل ، والمراد بذلك: أخطأ، وكذلك عبادة بن الصامت عليه رضوان الله تعالى، لما قيل له: إن الوتر واجب، قال: من قال بذلك؟ قال :أبو محمد، قال: كذب أبو محمد.

وعلى هذا يحمل قول أبي داود عليه رحمة الله تعالى في المصنف عليه رحمة الله، وهو في الديانة والاستقامة وكذلك العلم والفضل بالمقام المعروف، بل قال الإمام الذهبي عليه رحمة الله تعالى حينما ترجم له في السير، قال: وليس هو في المقام دون أبيه وذلك لفضله ومكانته وعلو منزلته وكعبه، وله مصنفات شهيرة: ككتاب المصاحف وهو أشهرها، وكذلك له كتاب: البعث، وله كتاب: الناسخ والمنسوخ، وله هذه الحائية وغيرها، وكتبه مشهورة متداولة، وله أيضاً كتاب: السنن وليس هو بالمتداول.

والمصنف عليه رحمة الله تعالى إنما صنف هذه المنظومة الحائية - وسميت: حائية، لأن آخر قافيتها هو حرف الحاء - للحاجة إليها، فإنه قد وقعت في أوائل عصره فتن تموج، كالقول بخلق القرآن، وبذلك قد ابتدأ بعد التمهيد بالتمسك بالسنة وبكتاب الله عز وجل بذكر مسألة مهمة وهي القول بأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق، وذلك يريد به الرد على أهل البدع من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والكلابية وغيرهم الذين قالوا بخلاف ذلك، بخلاف ما عليه السلف من الصحابة والتابعين.

والدليل على ذلك أن المصنف عليه رحمة الله أول ما ابتدأ بعد التمهيد بالتمسك بالأصول هو الكلام على أن القرآن كلام الله، وذلك أن هذه الفتنة قد شاعت وذاعت في عصره، فاحتاج إلى نفيها ونبذها، وبيان أن الحق والصواب على خلافها.

شرح النظم

التمسك بالكتاب والسنة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام الحافظ عبد الله بن سليمان بن أبي داود السجستاني رحمه الله تعالى] :

تمسك بحبل الله واتبع الهدى ولا تك بدعيا لعلك تفلح.]

قوله: [تمسك] : المراد بذلك هو الأخذ بقوة، ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام) :عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها النواجذ ، والإمساك: هو القبض باليدين، وكذلك العناية بالاتباع والاقتداء.

قال: [بحبل الله] : والمراد به ما ينجو به الإنسان، قال: [واتبع الهدى]، والهدى: المراد بذلك الدلالة والرشاد وهي على معنيين في كلام الله سبحانه وتعالى: تأتي بمعنى: التوفيق والهداية، وتأتي بمعنى: الدلالة والإرشاد، وسيأتي الكلام عليها.

قال: [ولا تك بدعياً لعلك تفلح] : الابتداع: هو إحداث شيء في الدين ما لم يأت به الكتاب والسنة، ويسمى: إحداثاً، ولذلك يقول النبي عليه

الصلاة والسلام كما في الصحيحين من حديث **عائشة**) : **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** ، والفلاح: هو النجاة والفوز.

فالمصنف عليه رحمة الله ابتدأ بهذه المعاني إشارة إلى أصل النجاة والفوز والفلاح، والذي ينبغي أن يكون عليه كل مسلم، هو أن يتمسك بالكتاب والسنة، ولذلك قال: [تمسك بحبل الله واتبع الهدى] : وأراد بذلك كلام الله - سبحانه وتعالى - القرآن الكريم، وقال الله سبحانه وتعالى ﴿ :وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾[آل عمران:103]، (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ قيل: المراد بذلك كلام الله، وقيل: المراد بذلك الشهادتين، وكلاهما مروي عن السلف.

فالمراد بذلك هنا هو كلام الله سبحانه وتعالى، أي: القرآن الكريم، وعقبه بقوله: [واتبع الهدى]، والمراد بالهدى هنا: سنة نبينا عليه الصلاة والسلام، وهذا جاء على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في صحيح الإمام **مسلم** من حديث **جعفر بن محمد** عن أبيه عن **جابر بن عبد الله** : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال) :**فإن أصدق الحديث**

كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، فما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى: هدياً، لأن الإنسان يهتدي به ويستدل به على طريق الهداية والخير، وعلى هذا قيل: بأن المراد من قوله: [بحبل الله] : هو القرآن الكريم.

وهذه هي الأصول التي تتكئ عليها الشريعة، وهي أصل كل حكم شرعي لا يجوز لأحد أن يعتمد على شيء سواها ولا قول عالم ولا غيره، ولذلك من نصَّب أحداً من الناس غير رسول الله صلى الله عليه وسلم يوالي لولائه ويعادي لعدائه فهو من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، كما جاء هذا عن غير واحد من السلف كعائشة عليها رضوان الله تعالى وغيرها، فالعبد مأمور باتباع الكتاب والسنة وهذا هو الأصل، وكأن المصنف عليه رحمة الله تعالى يريد أن يحاجج من يخالف هذا الاعتقاد: أن مردنا عند الاختلاف هو كلام الله سبحانه وتعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقرن الله عز وجل طاعة نبيه بطاعته، قال ﴿ :وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [المائدة:92]، ومن خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقد خالف الله جل وعلا، وقد قرن الله سبحانه وتعالى معصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعصيته، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله، وقد جاءت طاعة النبي عليه الصلاة والسلام مقرونةً بطاعة الله في مواضع عديدة، وجاءت معصية رسول الله صلى الله عليه وسلم مقرونة بمعصية الله في مواضع عديدة.

ويكفي أن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وحي منزل، يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم ﴿ :وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾[النجم:3-4]، فكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وحي من الله جل وعلا نزل به جبريل كما نزل بالقرآن على محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا محل اتفاق عند السلف عامة، وفي هذا رد على أهل البدع من المعتزلة وغيرهم الذين لا يحتجون بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأخبار الآحاد التي صحت أحاديثها وأسانيدها، وفيه رد على من لا يحتج إلا بالقرآن، وقالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر كغيره مأمور بأن يبلغ القرآن فحسب، وهذا غاية في الضلال والبدعة، والله عز وجل قد أمر بطاعته.

ولذلك يقول السلف كقول **عبد الله بن مسعود** وغيره: أن ما من شيء قد جاء به النبي عليه الصلاة والسلام إلا وهو في القرآن، ولما سئل **عبد الله بن مسعود** عن ذلك، قال: قال الله عز وجل ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** ﴾[المائدة:92]، فأمر الله سبحانه وتعالى بطاعة نبيه، أي: بجميع ما جاء به، فمن عصى الله عصى رسوله، ومن عصى رسوله فقد عصى الله، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ عن ربه ولم يأت بشيء من عنده.

والهدى: هي من أسماء سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتسمى: السنة، وتسمى: الحكمة، وتسمى: الهدى، ولذلك قال الله عز وجل ﴿ **مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ** ﴾[الأحزاب:34]، الحكمة: هي كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، والهدى هي هدي محمد صلى الله عليه وسلم كما جاء في حديث **جابر** في **مسلم** قال: **وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم** ، وكذلك يطلق على السنة ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، لقوله) : **عليكم بسنتي** ، وقد أمر الله سبحانه وتعالى باتباع سنة نبينا عليه الصلاة والسلام، وأمر نبيه بالدعوة إليها

بقوله ﴿ :قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ يوسف:108

وقال النبي عليه الصلاة والسلام لما خط لأصحابه خطوطاً كما في المسند والسنن من حديث عاصم عن عبد الله بن مسعود قال) :خط لنا النبي عليه الصلاة والسلام خطاً، وخط عن يمينه خطوطاً وعن يساره خطوطاً، قال: هذا الصراط المستقيم، وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان، ثم تلا قول الله عز وجل ﴿ :وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ]﴾الأنعام:153] ، السبل التي تصد عن سبيل الله عز وجل هي البدع والشبهات، فقد روى ابن جرير الطبري في تفسيره وابن أبي حاتم أيضاً من حديث ابن أبي نجيح عن مجاهد بن جبر، قال: السبل: هي البدع والشبهات، ولم يذكر الشهوات؛ وذلك أن الإنسان تقع منه الشهوة عن علم بالمخالفة فهو أرجى إلى التوبة والعودة إلى الله سبحانه وتعالى من صاحب البدعة؛ وصاحب البدعة يفعلها تعبداً وتديناً، فإن قلبه يشرب حباً لهذه البدعة، ولذلك أصحاب المعاصي والذنوب يتوبون إلى الله سبحانه وتعالى أكثر من أصحاب البدع

والشبهات وهذا معلوم ملموس، وهم يذبون ويدافعون عنها لأنهم يعتقدون أنها دين.

وجاء عن النبي عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة كما في السنة لـعبد الله بن أحمد وكذلك عند ابن أبي شيبة في الإيمان وفي المصنف وعند ابن خزيمة وغيرهم، وكذلك جاء في المسند أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال) :لا يقبل الله من صاحب بدعة توبة ، والمراد بذلك أنه لا يوفق للتوبة كما فسره الإمام أحمد عليه رحمة الله، والقبول ليس المراد به أنه تاب وأناب بقلب خالص، ولكن المراد بذلك أنه لا يوفق إلى التوبة، وما جاء في هذه الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاءت به أحاديث كثيرة لكن جلها واه، لا يصح منها شيء، وتأولها الإمام أحمد عليه رحمة الله تعالى ربما لكثرة طرقها وتعددها.

قال: [ولا تك بدعياً] : وهذا من القرائن التي تدل على أن مراد المصنف عليه رحمة الله بحبل الله والهدى: الكتاب والسنة، قال: [ولا تك بدعياً]، أي: تخرج عنهما، وابتداؤه الإحداث مأخوذ من البدعة، ابتدع فلان أي: ابتكر وأحدث، والبدعة مذمومة على الإطلاق، لم يأت عن أحد من

العلماء أنه قال بمدح البدعة مطلقاً، بل مراده هنا البدعة الأصلية، والبدعة في الشرع: ما ليس له أصل في كلام الله سبحانه وتعالى ولا في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

❊❊❊

أنواع الهداية

جاء في كلام الله سبحانه وتعالى ذكر الهدي على معنيين تقدم الكلام عليهما:

جاء بمعنى الهداية، أي: التوفيق والرشاد، وجاء بمعنى الدلالة والإرشاد، أما الأولى فهي مختصة بالله سبحانه وتعالى، فلا يوفق أحد إلا الله سبحانه وتعالى فهو المختص بذلك، ولذلك قال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ :إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص:56].

وأما المعنى الثاني وهو الدلالة والإرشاد، أن يدل الإنسان غيره على خير قد علم طريقه وسبيله، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى مبيناً أنه دل الإنسان إلى الخير بقوله ﴿ :وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد:10]، وهدى الله سبحانه وتعالى ثمود، فقال ﴿ :وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ [فصلت:17]، أي: أدللناهم طريق الهداية والرشاد، ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت:17]، استحبوا العمى: أي الغواية والضلال عن طريق الله

سبحانه وتعالى وعن سبيل الخير، وما نفاه الله عز وجل من هداية، المراد به التوفيق وهو مختص بالله سبحانه وتعالى وليس لأحد من الناس، وما يخالف ذلك، أي: من هداية النبي عليه الصلاة والسلام فهو البدعة.

❊❊❊

البدعة اللغوية

والبدعة مذمومة بإطلاق في كلام الشارع، ولكن قد جاء في كلام بعض السلف مدح البدعة، والمراد بذلك البدعة اللغوية وليس البدعة الشرعية، والمراد بالبدعة اللغوية: هو إحداث شيء لم يكن موجوداً، سواءً كان أصله موجوداً في السابق أم لا، لكنه مندثر حال إيجاده، كما أحيى **عمر بن الخطاب** عليه رضوان الله تعالى جمع الناس للقيام كما يسميه بعض السلف: التراويح، ولذلك قال: نعمة البدعة ابتدعها **عمر!** ، وجاء مدح مثل هذا عن الإمام **الشافعي** عليه رحمة الله وكذلك عن **الشاطبي** وغيرهم، وقد أشار الحافظ **ابن رجب** عليه رحمة الله تعالى في أوائل كتابه: جامع العلوم والحكم إلى هذه المعاني عند كلامه على حديث **عائشة** عليها رضوان الله تعالى) :**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد** ، وإلا فالأصل في البدع أنها مذمومة بإطلاق.

وكل ما جاء في أبواب التعبد مما ليس له أصل في الكتاب والسنة فهو بدعة مذمومة، وقال النبي عليه الصلاة والسلام كما في الصحيحين من حديث **عائشة**) : **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** ، وجاء

في مسلم وفي البخاري معلق) :من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد ، والمراد بذلك: مردود عليه، وهذا نظير قول النبي عليه الصلاة والسلام) :إنما الأعمال بالنيات ، أي: إنما قبولها وردها بالنيات.

***

شروط قبول العمل

فلا بد لقبول العمل من شرطين:

-الإخلاص.

-الموافقة

شرطان لازمان بلا مفارقة في كل عمل يعمله الإنسان، فلا بد من الإخلاص لله وكذلك الموافقة لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والسنة التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسبة للقرآن تشترك معه أنها كالقرآن من جهة الاحتجاج ومن جهة لزوم الطاعة، ومن جهة التفصيل فإنها تأتي مقررةً لما جاء في كلام الله سبحانه وتعالى، وكذلك تأتي مبينةً لما أجمل، وتأتي كذلك مقيدةً لما أطلق، فالسنة لا غنى عنها، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتمسك بها كما روى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما من حديث العرباض بن سارية ويرويه عنه السلمي وحجر بن حجر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال) :عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من

بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وهذا تأكيد للتمسك بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال) :عليكم بسنتي ، وعليكم: هنا دليل وعلامة على وجوب اللزوم) :عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين، تمسكوا بها : وهذا تأكيد،)وعضوا عليها بالنواجذ ، ثم أكد بمؤكد ثالث: بيان شدة خطر المخالفة، قال) :وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة .

قال: [لعلك تفلح] : الفلاح: هو الفوز والرشاد، فلا يمكن لناج أن يكون ناج إلا بهذا الوصف، ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى شرط الفلاح: التقوى، فلا يمكن للإنسان أن يفلح إلا وقد اتقى الله سبحانه وتعالى، وتقوى الله عز وجل لا يمكن أن تحقق في العبد إلا بتمسكه بالكتاب والسنة، وأراد المصنف عليه رحمة الله تعالى بذلك أن يبين أن ما يأتي :من تفاصيل الاعتقاد مبناه على كلام الله سبحانه وتعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي حبل الله وهدي النبي عليه الصلاة والسلام.

تلازم الكتاب والسنة

قال رحمه الله: [ودن بكتاب الله والسنن التي أتت عن رسول الله تنج وتربح].

قوله: [ودن بكتاب الله] : ودن أي: من باب الديانة أو الاعتقاد، من باب: دان يدين ديانةً، ولذلك يسمى ما يعتقده الإنسان: ديناً، قال: [بكتاب الله] : كتاب الله عند إطلاقه يراد به كلام الله عز وجل وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا قيل: الكتاب، فالمراد به الوحيين: القرآن والسنة، وإذا عطف عليه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يختص بالقرآن، والدليل على ذلك ما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني) : أن رجلاً أعرابيا جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام، قال: يا رسول الله! اقض بيننا بكتاب الله، إن ابني كان عسيفاً على هذا فزنى بامرأته ، أي: أجيراً عليه يرعى له الغنم،)اقض بيننا بكتاب الله، إن ابني كان عسيفاً على هذا فزنى بامرأته، فقيل لي: على ابنك القتل والرجم، قال: ففديت ابني بمائة من الغنم ووليدة، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: أما الغنم والوليدة فرد عليك، وعلى ابنك جلد

مائة وتغريب عام ، وجاء في رواية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال) :لأقضين بينكما بكتاب الله .

فمن نظر لحكم النبي عليه الصلاة والسلام حكم بأحكام: أولها) :أما الغنم والوليدة فرد عليك ، وهذا بالنص لا بالإجمال، ليس في كلام الله سبحانه وتعالى القرآن لكنه جاء بالإجمال بإعادة الحقوق إلى أهلها،)أما الغنم والوليدة فرد عليك ، هذا الحكم، الحكم الآخر) :وعلى ابنك جلد مائة ، جاء في كلام الله سبحانه وتعالى ﴿ :الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور:2]، الحكم الثالث: هو تغريب عام، وهذا ليس في كلام الله سبحانه وتعالى، مع قوله) :لأقضين بينكما بكتاب الله ، الحكم الرابع: قوله عليه الصلاة والسلام) :واغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها ، والرجم في كلام الله سبحانه وتعالى كما في الصحيحين في حديث عمر وهو مما نسخ لفظه وبقي حكمه) :الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة .

وكتاب الله إذا أطلق على هذا الإجمال فالمراد به كلام الله عز وجل وكلام نبيه، وهذا يدل على الاقتران في الاحتجاج والمساواة، إلا أن الله سبحانه وتعالى قد جعل لكلامه مزيةً ليست لغيره، فقد جعل كلامه الحرف بحسنة إلى عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف وهذا ليس لكلام أحد غير الله سبحانه وتعالى، واختص به في بعض العبادات كالصلاة وغيرها والأوراد ونحو ذلك.

وأما السنة فاجتمعت مع القرآن بهذا الوصف: بكتاب الله، وكذلك اجتمعت مع القرآن من جهة الاحتجاج، فهي من جهة الاحتجاج سواء، فمن احتج بها فهو محتج بالقرآن لا فرق بينهما، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى ﴿ :وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾[النجم:3-4]، ومن ردها فقد رد القرآن، واقترنت مع القرآن أنها تتلى كالقرآن، فقد وصفها بالتلاوة غير واحد من العلماء كالإمام الشافعي عليه رحمة الله كما في كتاب: الأم، وكذلك ابن حزم الأندلسي في كتابه: الإحكام، قالوا: والسنة وحي يتلى، والمراد بذلك أنها تقرأ ويتعبد بقراءتها.

واشتركت مع القرآن بوصف آخر: وهو الإنزال، أي: أنها منزلة من السماء، فالله عز وجل قد أنزل على نبيه الكتاب والحكمة، وهذا محل إجماع عند العلماء: أن السنة نزل بها جبريل كما نزل بالقرآن، فقد روى الخطيب البغدادي في الكفاية وابن عبد البر في كتابه: الجامع، وكذلك أبو داود في: المراسيل من حديث الأوزاعي عن حسان أنه قال: نزل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم بالسنة كما نزل عليه بالقرآن.

ومما تشترك فيه السنة مع القرآن: أنها وحي، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى ﴿ :وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾[النجم:3-4]، وقد وصفها بالإنزال كثير من العلماء، لذلك في أوائل مصنفاتهم حينما يتكلمون بالحمدلة يصفون السنة بالإنزال كما وصفها الإمام العراقي عليه رحمة الله تعالى في أوائل كتابه: طرح التثريب، قال: الحمد لله المنزل الوحيين، والمراد بذلك الكتاب والسنة.

فكل شيء جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل فهو عن الله سبحانه وتعالى بواسطة جبريل، إلا الصلاة فقد أخذ حكمها

بالإجمال من الله سبحانه وتعالى بلا واسطة، فقد روى **الخطيب البغدادي** في الكفاية و**ابن عبد البر** في كتابه: الجامع و**عبد الله بن أحمد** في: السنة وغيرهم: أن **أحمد بن زيد بن هارون** قال: إنما هي، يعني: ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما هي صالح عن صالح، وصالح عن تابع، وتابع عن صاحب، وصاحب عن رسول الله، ورسول الله عن جبريل وجبريل عن الله، فما من شيء يقف دون الله سبحانه وتعالى، ولذلك ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو عن الله جل وعلا، فالأصل في أقوال النبي عليه الصلاة والسلام وفي أفعاله أنها وحي من الله، فأقوال النبي عليه الصلاة والسلام على الإطلاق وهذا هو الأصل، إلا ما علم يقيناً أنه جرى على العادة وهذا نادر.

❊❊❊

أفعال النبي صلى الله عليه وسلم بين العبادة والعادة والجبلة

كذلك في أفعاله، فأفعال النبي عليه الصلاة والسلام على أقسام:

الأول: فعل عبادة وهذا هو الأصل، وكل ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو عبادة من أفعاله، ولا يخرج ما يلي من الأقسام عن هذا القسم إلا بقرينة أو نص ظاهر، ولا بد أن تكون القرينة قوية، لهذا أمر الله سبحانه وتعالى بالاقتداء بسنته، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالامتثال، كما جاء في أحكام عدة) :**صلوا كما رأيتموني أصلي** ،)**خذوا عني مناسككم** ، وقوله) :**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي** ، وغيرها من الأحاديث.

الثاني: فعل عادة: وهذا لا يخرج عن الأول بنص أو لقرينة ظاهرة، أو لمخالفة إجماع الصحابة له، وهذا يعرف بالنظر في القرائن ولا بد للقرائن أن تكون قوية، ففعل العادة مما يشترك فيه الناس، سواء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤمنهم وكافرهم كلبس الإزار والرداء والعمامة ولبس الجبة وكذلك الصندل من النعال وغيرها، فهذا من العادات، وقد

يدخل في هذا على قول البعض تربية شعر الرأس، وهو على قول بعض الأئمة أنه من العادة التي يفعلها العرب، بل كانوا يمدحون في جاهليتهم من كان له جمة، مما يدل على قوته وبأسه وشدته وهذا معروف.

الثالث: فعل جبلة، وهو ما جبل عليه الإنسان من غير اختيار، كحركته الفطرية التي لا يملكها الإنسان من نوم ويقظة، وكذلك هيئته في مشيته، فالنبي عليه الصلاة والسلام قد وصف أنه إن مشى كأنما يمشي في منحدر، والمعتاد أن الإنسان بمشيته لا يتكلف، فالناس يعرفون فلاناً بمشيته وإن كان بعيداً فيقال: هذه مشية فلان، فلا يقال: إن الإنسان يتكلف ويمشي مشيةً غيره، فالإنسان مجبول على المشية ومجبول على هيئة ونحو ذلك وليس له الاختيار فيها.

ويدخل في هذا أصل النوم وأصل اليقظة وأصل الأكل والشرب، لا ما جاء في تفاصيلها كالنوم على الجنب الأيمن، أو استقبال القبلة حال النوم ولا يصح فيه حديث على قول البعض، وقد جاء فيه حديث) :قبلتكم أحياءً وأمواتاً ، وهو حديث منكر، ولا ما جاء في تفاصيل الأكل، وإن كان أصله جبلة جبل الإنسان على حبه، أي: كل الناس، وما في تفاصيله كالأكل

باليمين وحب تناول الطعام في وقت معين كالأسحار ونحو ذلك في الصيام، فإن هذا جاء بدلالات باللفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك بقرائن عدة.

ويدخل في هذا الفعل حب نوعٍ من الأكل كحب الثريد وحب الدباء وحب الكتف من الشاة ونحو ذلك، فإن هذا يجبل عليه الإنسان فيحب نوعاً من الطعام، وهذا لا يكون من السنة إلا إذا اقترن بقرينة أخرى تدل على أنه إنما فضله لمزية أخرى.

فإن فعل الإنسان هذا الفعل من باب التعبد، فإنه يثاب على محبة النبي عليه الصلاة والسلام التي دفعته لذلك، ولا يثاب لذات الفعل.

وإنما خرجت سنة النبي عليه الصلاة والسلام من قوله: [كتاب الله] هنا، لأنه قد جاء بعدها بالسنن، قال: [والسنن التي]، والسنن: هي جمع سنة، والسنة: هي ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير، ويضيف بعض المتكلمين من الأصوليين وغيرهم، وبعض أهل الحديث من الأئمة المتأخرين وغيرهم، قولهم: أو صفة خَلقية أو خُلقية، وهذا فيما يظهر لا حاجة لإيراده؛ وذلك أن الصفة الخَلقية لا

يملكها الإنسان، فالله عز وجل قد خلق الناس في أحسن تقويم، والصفة الخُلقية داخلة إما في القول أو في الفعل، فقد تكون الخلقية قولاً كالصدق والإحسان، وقد تكون فعلاً كالبشاشة والتبسم وغيرها من الإكرام ونحو ذلك.

أراد بعضهم إضافة هذه الجمل من قولهم: صفة خلقية أو خلقية، قالوا: الخلقية قد جاء فيها أشياء منها: إعفاء اللحى، وعلى قول بعضهم: أن يجعل الإنسان له جمة، فيقال: إن هذه داخلة في أبواب التروك، وأبواب التروك داخلة في باب الأفعال، والدليل على ذلك: أن النبي عليه الصلاة والسلام قال) :إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فيلزم من هذا أن نقول: إن الأعمال يثاب الإنسان عليها بنيته، أما التروك فلا يثاب عليها بالنية، فيقال: هذا لا يسلم، بل إن التروك والأفعال لا بد فيها من النية إذا أراد الإنسان الإثابة، لكنه يرتفع عنه الإثم في باب التروك وإن عدمت النية.

ولذلك الوازع الطبعي والوازع الشرعي عند التحذير من المحرم سيان لا فرق بينهما، أما من جهة الحض على أفعال الخير فلا بد أن يكون وازعاً

شرعياً فحسب، والمراد من ذلك أن يقال: إن الإنسان يثاب على تركه المحرم وإن لم يحتسب، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قيد ذلك بالأعمال، فيقال: الأعمال والتروك كلها سواء تسمى: أعمالاً، فالإنسان لا يثاب على تركه المحرم إلا بالنية، لذلك قال) :إنما الأعمال بالنيات .

وقد احتج بعضهم كـالأوزاعي وكذلك أبو حنيفة، وقالوا: إن الإنسان في باب التروك لا يدخل في قوله) :إنما الأعمال بالنيات ، ولعل من أورده وجعل من التمام ذكر صفة خَلقية أو خُلقية، قال: من باب نزع الخلاف، ولكن عند النظر أنه لا حاجة إليها، والصفة الخلقية تدخل في باب الأعمال أو في باب التروك فهي داخلة من باب الأفعال من قول أو فعل أو تقرير، أو صفة خُلقية: الخلقية من باب الأخلاق، فالأخلاق تأتي في باب الأقوال وتأتي في باب الأفعال ونحو ذلك، فقد جاء تلخيصها في كلام الله سبحانه وتعالى ﴿ :وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم:4]، وقيدها بوصف معين: باب الأخلاق، ولا حاجة إليها عند النظر وكذلك في اللغة وفي الشرع.

قال: [والسنن التي أتت عن رسول الله تنج وتربح] : قيّد هنا عن رسول الله؛ وذلك أن السنة قد جاء الوصف بها فيما جاء عن الصحابة، فقال

النبي عليه الصلاة والسلام) :عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين ، قيدها قال: [أتت عن رسول الله] : لبيان أنه لا حجة بقول أحد ممن يوصف بالسنية أن فعله سنة كبعض الصحابة كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث العرباض، فأراد نزع الخلاف هنا، فلا يتبادر إلى الذهن أن المراد السنة بالإطلاق مما وصف في حديث العرباض، قال: من السنن التي أتت عن رسول الله أي: فحسب، ليست أي سنة تأتي؛ وذلك لأنه لا حجة بقول أحد في العبادات، إلا بكلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما من وصف فعله أو قوله بالسنية كالخلفاء الراشدين فهذا ليس بحجة إلا إذا أجمع الصحابة فإجماعهم حجة، ولذلك يقول الإمام أحمد عليه رحمة الله: الإجماع إجماع الصحابة ومن جاء بعدهم تبع لهم.

***

حجية قول الصحابي

قول الصحابي ليس بحجة من وجوه:

الوجه الأول: أن الصحابة اختلف بعضهم مع بعض، ولو كان قول واحد منهم حجة لقيل باختلاف الحجة مع بعضها ولا خلاف في ذلك.

الوجه الثاني: لو قيل: إنه حجة لقيل: إنه وحي، ولا قائل بذلك.

الوجه الثالث: أنه ثبت عن الصحابة قولان في مسألة واحدة، والوحي لا يتعدد، وهذا يدل على أن قول الصحابة عليهم رضوان الله تعالى ليس بحجة.

وقد يقال: أنه حجة من باب الاستدلال والاستئناس لا من باب حسم الخلاف ونزعه ورفعه، فخلاف الصحابة عليهم رضوان الله تعالى موجود ومعلوم، فقد اختلفوا مع بعضهم.

الوجه الرابع: أن الصحابة اختلفوا مع بعضهم مع علمهم بأنهم قد خالف بعضهم بعضاً، ولو كان قول أحدهم أولى من الآخر لكان محل تسليم، ولم يقل بذلك أحد منهم عليهم رضوان الله تعالى.

قال: [تنج وتربح] : النجاة: هي السلامة، أن يسلم الإنسان من الشر، والإنسان إن أراد أن يدخل في مسابقة في شيء من أمور الدين والدنيا، فإن بقي بنفسه ولم يخسر شيئاً فهو ناج، والنبي عليه الصلاة والسلام قد وصف من لم تخطفه كلاليب جهنم، قال) :فناج مسلم ، أي: نجا منها وإن لم يحصل له فوز، وأما ما زاد عن ذلك فهو الربح، ولذلك الإنسان يدخل في تجارة فإن سلم له رأس ماله فإنه ناج وإن زاد على ذلك فإنه رابح؛ ولذا وصفها، أي: وصف من تمسك بكلام الله سبحانه وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه ناج ورابح، أي: حاصل له كمال النجاة وكمال الربح، وهذا أفضل ما يسعى إليه الإنسان.

وحينما أورد المصنف عليه رحمة الله تعالى هذين البيتين، أراد بذلك أن يبين أن ما جاء في هذه الأبيات إنما هو اعتماد على الكتاب والسنة، وأن الحجة فيها ولا حجة في غيرها، فيقطع الاستدراك عليه أن يقول: إنه احتج بقول أحد غير كلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

اعتقاد أهل السنة في كلام الله

]وقل: غير مخلوق كلام مليكنا بذلك دان الأتقياء وأفصحوا.[

بدأ المصنف عليه رحمة الله بالكلام على هذه المسألة، وهي من المسائل العظام التي وقعت فيها الفتنة ووقع فيها البلاء، فهذه المسألة لم تكن موجودةً في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يأت حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها بهذا اللفظ: مخلوق أو غير مخلوق، وبهذا اللفظ جاء فيها من حديث عبد الله بن مسعود وهو منكر جداً، لكنه قد جاء عن بعض الصحابة.

وأعلى ما جاء في هذا الباب ما رواه ابن جرير الطبري من حديث عبد الله بن صالح كاتب الليث عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن عبد الله بن عباس عليه رضوان الله تعالى: أنه قال في قول الله سبحانه وتعالى ﴿ :غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾[الزمر:28]، قال: غير مخلوق، وكذلك ما أخرجه الدارمي وغيره من حديث عمرو بن دينار قال: أدركت الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم نحواً من سبعين كلهم يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، ونشأ القول فيها بعد ذلك ووقعت الفتنة

واشتدت في عصر الإمام أحمد عليه رحمة الله، وكان فيها القول شديداً في أوائل عصر المصنف عليه رحمة الله ابن أبي داود ؛ وذلك ابتدأ فيها لأنها كانت الفيصل بين أهل البدع وبين أهل السنة.

فابتدأ فيها بقوله: [وقل]، أي: إنها أصبحت علامة، أي: فيصلاً بين أهل السنة وبين أهل البدعة، قال: [وقل: غير مخلوق كلام مليكنا]، أي: يجب عليك أن تعتقد وتقول بلسانك: إن كلام الله سبحانه وتعالى غير مخلوق، وكلام الله سبحانه وتعالى قد أثبته الله عز وجل في كتابه العظيم في مواضع عدة، منها قول الله جل وعلا ﴿ :وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ﴾[التوبة:6]، وقول الله سبحانه وتعالى ﴿ :وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾[النساء:164]، وقوله سبحانه وتعالى ﴿ :وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾[الأعراف:143]، وقوله سبحانه وتعالى ﴿ :وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ ﴾[مريم:52]، وقول الله سبحانه وتعالى ﴿ :وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى] ﴾المائدة:116.]

القول بخلق القرآن

فالله عز وجل موصوف بالقول والمناداة والكلام، وكلام الله سبحانه وتعالى وقعت فيه الفتنة والفرقة، فأصبح فيصلاً بين أهل الضلال وأهل الحق والهداية، وقد ضل في هذه الصفة طوائف: ضل فيها الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والكلابية وغيرهم، على ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: الجهمية وهم أتباع الجهم بن صفوان الذين أخذوا بدعتهم من اليهود، فالجهم بن صفوان أخذ بدعته من الجعد بن درهم، والجعد بن درهم أخذ بدعته عن أبان بن سمعان وأبان بن سمعان أخذ بدعته من طالوت ابن أخت لبيد الأعصم الذي سحر النبي عليه الصلاة والسلام، وطالوت قد أخذ بدعته من لبيد الأعصم اليهودي، ولذلك أصل بدعتهم من اليهود عليهم لعنة الله، والجهمية قالوا: بأن كلام الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم مخلوق.

الصورة الأولى من صور الضلال: ضلال الجهمية، فإنهم نفوا أن يكون لله كلاماً، فتأولوا ما جاء في القرآن الكريم وتحايلوا على كلام الله سبحانه وتعالى كما تحايل الجهم بن صفوان على قول الله سبحانه

وتعالى ﴿ :وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:164]، فنصب كلمة: اللهَ، فجعل المتكلم موسى: وكلم اللهَ موسى تكليماً، ولكنه يخاطب بقوله ﴿ :وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف:143]، فالله سبحانه وتعالى هو المتكلم، فأضاف الله عز وجل الكلام إليه بقوله ﴿ :وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ] ﴾التوبة:6.]

فنفوا إضافة الكلام إلى الله وقالوا: إن القرآن مخلوق، وقد وقعوا في ضلالين: أنهم قالوا: إن القرآن مخلوق، وكذلك نفيهم أن يكون لله كلاماً.

وأما الطائفة الثانية: فهم المعتزلة، الذين قالوا: إن القرآن مخلوق، وأضافوا الكلام إلى الله سبحانه وتعالى إضافة المخلوق إلى الخالق، قالوا: فالإضافة هنا في قوله سبحانه وتعالى ﴿ :حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة:6]، كإضافة سائر المخلوقات إلى الله، وإضافة الشيء إلى الله تكون على حالين، يأتي الكلام فيهما بعد ذكر الطائفة الثالثة.

الطائفة الثالثة: التي ضلت، والصورة الثالثة من أحوال الضلال في هذه المسألة: ضلال الأشاعرة والكلابية الذين قالوا: إن لله عز وجل كلاماً

لكنه بغير حرف ولا صوت، قالوا: فالكلام على نوعين: كلام نفسي يحدث في النفس وليس فيه حرف ولا صوت فهذا هو كلام الله، وكلام بحرف وصوت وهذا ليس بكلام الله.

❊❊❊

اعتقاد أهل السنة في كلام الله

واعتقاد أهل السنة: أن القرآن كلام الله، غير مخلوق بحرف وصوت، ولذلك كلام الله سبحانه وتعالى يسمع، ونداؤه مسموع من الله سبحانه وتعالى، والقرآن منه نزل ومنه بدأ وإليه يعود، ولذا كلام الله عز وجل هو القرآن الكريم، فالله عز وجل موصوف بالقول وبالمناداة وبالكلام وبالصوت، ثبت هذا كله في أحاديث كثيرة، روى الإمام **أحمد** في المسند وغيره من حديث **عبد الله بن أنيس** : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال) :**يحشر العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلا، فيناديهم الله عز وجل بصوت يسمعه من قرب كما يسمعه من بعد** ، فنداء الله عز وجل يسمعه الناس سواسية، من بعد كما يسمعه من قرب، وهذا يبطل قول الأشاعرة والكلابية الذين يقولون: أن الكلام نفسي ليس فيه حرف ولا صوت، فكلام الله عز وجل مسموع، ويقول الله سبحانه وتعالى ﴿ :وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ﴾[التوبة:6]، ولذلك أضاف الله عز وجل الكلام إليه في قوله ﴿ :كَلامَ اللَّهِ ﴾

[التوبة:6]، والإضافة إذا أضيفت إلى الله سبحانه وتعالى لا تخلوا من حالين:

الحالة الأولى: إضافة الصفة إلى الموصوف، وهي المرادة هنا في كلام الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿ :كَلامَ اللَّهِ ﴾[التوبة:6]، كسائر الصفات، كسمع الله وبصر الله وغير ذلك، يقال: كلام الله.

الحالة الثانية: إضافة المخلوق إلى الخالق، كأن يقال: الخلق عيال الله أو خلق الله وصنع الله وعباد الله ونحو ذلك، أي: مخلوقون من خلق الله.

والفرق بين الحالة الأولى والثانية، إذ أن كلاً منهما مضاف فيقال: يفرق بين الحالة الأولى والثانية بين إضافة الصفة إلى الموصوف، وإضافة المخلوق إلى الخالق: أن المضاف إذا كان لا يستقل بنفسه فإنه من إضافة الصفة إلى الموصوف، فالكلام لا يمكن أن يكون بنفسه، لا بد أن يقوم به قائم، فيقال: كلام فلان وكلام الله ونحو ذلك، فالكلام إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، وإذا كان المضاف يقوم بنفسه ويستقل بها يكون من باب إضافة المخلوق إلى الخالق، فيقال: خلق الله وعباد الله،

فهؤلاء لهم مشيئة أثبتها الله عز وجل لهم كقوله سبحانه وتعالى ﴿ :وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ] ﴾الإنسان:30.]

***

حجج أهل الضلال في خلق القرآن

ومن حجج أهل الضلال في هذا الباب في قولهم: أن القرآن مخلوق: احتجوا بشبه واهية سواء من أشعار العرب أو ببعض الظواهر من كلام الله سبحانه وتعالى، أو بعض لزوم هذه الصفة:

الحجة الأولى لهم، قالوا: أن الله سبحانه وتعالى وصف قوله بوصف حيث قال ﴿ :وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾[السجدة:13]، فقال: مني، كما قال الله سبحانه وتعالى في قوله جل وعلا ﴿ :وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾[الجاثية:13]، فما في السماوات وما في الأرض من الله، فالقول من الله أيضاً، أي: أنه مخلوق من الله، وهذه حجة واهية! وذلك أن الإضافة بمن هنا كما تقدمت الإضافة في إضافة الصفة للموصوف، فيقال بقوله: منه، لا يمكن أن تكون من خلق الله لأنها إضافة لله سبحانه وتعالى؛ لأن الكلام يضاف إلى الله عز وجل كإضافة الصفة إلى الموصوف، وأما قوله ﴿ :جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [الجاثية:13]، إضافة المخلوق إلى الخالق.

يقول أهل السنة: إن عيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، فقوله ﴿ :وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾[النساء:171]، هل هو من الله؟ فعيسى كان بكلمة الله، كان بكن ولم يكن هو كن، فمن قالوا: أنه هو الله، قالوا كالنصارى أن المسيح هو الله، والله عز وجل يقول ﴿ :وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ [النساء:171]، أي: من الله، وكذلك من قالوا: إنه ابن الله، إذاً: فالجهمية وافقوا النصارى في هذا الباب ومن جهة هذا الاحتجاج، ولكن هذا جهل بلغة العرب أولاً، وجهل بمعاني القرآن، وجهل بأصول الإسلام ثالثاً، وذلك أن الله سبحانه وتعالى قال ﴿ :وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾[الجاثية:13]، أي: كل هذه منشأها من خلق الله سبحانه وتعالى خلقها، نضير قوله ﴿ :وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾[النساء:171]، أي: من الله، أي: خلقها، فعيسى ليس هو: كن، أي: كلمة الله، وإنما كان بكن، وهذا يجوز أن يقال: إنه من فلان.

الحجة الثانية التي احتجوا بها، أن القرآن ليس كلام الله، احتجوا ببعض أشعار العرب أن الكلام هو ما في الفؤاد، قالوا: قال الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وقال بعض الحلولية: إن كل قول يقال: هو من خلق الله سبحانه وتعالى ومن ذلك: قول الله جل وعلا، وذلك أن كلها موصوفة بالقول، ولذا قال بعض أئمة الملاحدة من الحلولية وغيرهم: والكلام منا كله كلامه سواء منا نثره ونظامه، قالوا: فالمنثور والمنظوم بما في ذلك قالوا: كلام الله سبحانه وتعالى كله من الله مخلوق، وهذا على قول في الاحتجاج بكلام الأخطل، يجري على كلام من قال: إن الكلام هو ما في النفس، وهذا يجري على كلام الأشاعرة والكلابية.

فالمعتزلة قد وافقوا وخالفوا الجهمية، فوافقوهم بأن كلام الله مخلوق لكنهم خالفوهم بإثبات كلام الله وإضافته إلى الله، قالوا: لكنه مخلوق، والجهمية نفوا أن يكون لله كلاماً أصلاً، وتأول الأشاعرة والكلابية الكلام فقالوا: لله عز وجل لكنه كلام نفسي من غير حرف ولا صوت، وهذا كله ضلال.

الحجة الثالثة من حججهم، قالوا: نحن نتكلم بكلام الله، ونتكلم بغير كلام الله، فهل نقول: إن كلامنا بكلام الله ليس بمخلوق وكلامنا الذي هو كلامنا يكون مخلوقاً، فنقول حينما نتلوا القرآن: هذا كلام الله ليس

بمخلوق، وحينما نتكلم بكلامنا يكون مخلوقا وهو سيان، وهذا من اللوازم التي لا يلزم منها.

ولذلك اعتقاد أهل السنة، قالوا: حينما يقرأ القاري القرآن يقال: الكلام كلام الباري والصوت صوت القاري، فالكلام كلام الله والصوت صوت القارئ، ويأتي كلام المصنف عليه رحمة الله على هذه المسألة.

ويحسن التنبيه هنا: أن أهل البدع أساس ضلالهم هو تشبيههم الخالق بالمخلوق، فالمعطلة مشبهة والمشبهة والمؤولة قد عطلوا النص عن حقيقته لكنهم صرفوه عن حقيقته فليسوا بمعطلة خلّص لكنهم مشبهة أيضا، فكل معطل مشبه، كيف يكون ذلك؟ كل من عطل صفة من الصفات لا بد أن يكون مشبهاً، لم؟ لأنه قد استقر في نفسه وفي علمه تشبيهاً فأراد تنزيهاً فوقع في التعطيل، فمن قال: كلام الله مخلوق، أو قال: ليس لله كلاماً، قالوا: نحن نتكلم بكلام الله، فإذا تكلمنا بكلام الله وتلونا القرآن ونتكلم بكلامنا ونتلوه، فهذا يكون ليس بمخلوق وهذا مخلوق؟! وكذلك حينما يعطلون صفات الله عز وجل كلها كصفة العلو، قالوا: حينما يعلو الله عز وجل وينزل إلى السماء الدنيا، هل يخلوا عرشه أو لا يخلوا منه؟

وكذلك قالوا: حينما يستوي الإنسان على عرشه يكون العرش مساوياً له، أو أكبر منه، أو أصغر منه؟

هذا كله بسبب تشبيههم وإهمالهم لقول الله سبحانه وتعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾[الشورى:11]، فوقع في قلبهم تشبيهاً فأرادوا تنزيهاً فوقع منهم تعطيل حيث أرادوا التنزيه، ولذلك لا يصرح المعطل بالتشبيه لأنه أراد البعد عنه والنفرة منه فوقع في التعطيل، فيقال: إن ما استقر في ذهنك وأردت أن تهرب منه وقعت فيما هو أخطر منه وهو التعطيل، فيجب عليك أن يستقر في ذهنك أصلاً قبل أن تنظر في شيء أن الله ليس كمثله شيء، فلا تنظر في مسألة خلو العرش ولا المساواة ولا كيفية النزول وغير ذلك، ولذلك يقال: إن الله عز وجل له علو ويستوي على عرشه وينزل إلى السماء الدنيا، والليل ينقلب من بلد إلى بلد وثلث أخير باق في الدنيا على الدوام، كيف ينزل الله عز وجل؟ هذا ليس من منهج أهل السنة والسؤال عنه بدعة وضلال.

ومن خطر في ذهنه أن الله عز وجل إن نزل خلا عرشه منه، فقد استقر في ذهنه تشبيه الخالق بالمخلوق، لكنه لا يستطيع أن يبوح به فباح

بالتعطيل، وهذا أساس بدعة المعطلة وهذا هو الضلال، والمشبهة شبهوا فصرحوا باللزوم وخالفوا قول الله سبحانه وتعالى ﴿ :لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:11.]

والكلام في تقريب خلاف أهل البدع في هذه المسألة كلام يطول، لكن خلاف أهل البدع في هذه المسألة خلاف له أصول طويلة، قد يأتي الإشارة إلى كثير منه.

والبدعة في قول خلق القرآن قد ابتدعها الجهم بن صفوان وأخذها عن الجعد بن درهم، ومن قال: بأن كلام الله عز وجل مخلوق فقد كفر بالله سبحانه وتعالى أصلاً وضل عن منهج الله سبحانه وتعالى، وكذب الله عز وجل فيما أخبره عن نفسه حيث أضاف الكلام إلى الله، ولذلك حكا غير واحد من أئمة الإسلام أن الجهمية ليسوا من الطوائف الثلاث والسبعين فرقة لأنهم كفار، والطوائف الثلاث والسبعون هم الطوائف البدعية، وثبت عن سفيان الثوري ويوسف بن أسباط قالوا: الجهمية ليسوا من الطوائف الثلاث والسبعين، وذلك أنهم كفروا وكذبوا بما ثبت في كلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحكى كفرهم غير واحد من العلماء، ونص الإمام اللالكائي عليه رحمة الله على كفر الجهمية في كتاب: أصول اعتقاد أهل السنة، ويقول الإمام ابن القيم عليه رحمة الله تعالى في نونيته:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان

واللالكائي الإمام حكاه عن هم بل حكاه قبله الطبراني

وقد حكي عن أكثر من خمسمائة من أئمة الإسلام أنهم قد حكموا بكفرهم، لكنه لا يتجرأ بكفر أعيانهم حتى تقام عليهم الحجة وترتفع الشبهة التي قد وقعت عندهم، والإمام أحمد عليه رحمة الله كفّر الجهمية لكنه ما كفر أعيانهم، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله، فمن قال: كلام الله مخلوق فقد كفر بالله سبحانه وتعالى، بل من قال: حرفاً من كلام الله مخلوق فهو كافر بالله، وهذه الكلمة كفرية والجهمية ليسوا من أهل الإسلام، وليسوا من الطوائف المتوعدة بالنار، والطوائف الثلاث والسبعون هي الطوائف التي تنتمي للإسلام وداخلة في دائرة الإسلام لكنها موغلة في البدعة، ويدخل في هذا الطوائف الإسلامية، ويخرج منها الطوائف التي تزعم إسلاماً وهي خارجة من الإسلام.

يقول: [وقل: غير مخلوق كلام مليكنا] : ويجب على المؤمن أن يصف الله عز وجل بما وصف به نفسه، بل في كلام الله سبحانه وتعالى ويجب على المؤمن أن يثبت أن القرآن غير مخلوق، وأن يضيفه إلى الله: [كلام مليكنا].

قال: [كلام مليكنا] : فيه إثبات صفة الملك لله سبحانه وتعالى، وهي الملك المطلق والكمال الذي لا يعتريه نقص، فكل شيء تحت ملك الله سبحانه وتعالى وقدرته ومشيئته.

قال: [بذلك دان الأتقياء وأفصحوا]، أي: بهذا الاعتقاد قد دان الأتقياء من أهل الإسلام والإيمان، وثبت عن المصنف عليه رحمة الله أنه قال في آخر رسالته هذه، قال: [هذا ما أقول وهذا ما يقول أبي]، يعني: صاحب السنن، وهذا ما يقول علماء الإسلام، ومن قال خلاف ذلك فقد كذب.

والأتقياء: من جمع: تقي، مشتق من التقوى، وهو أن يتقي الإنسان مواطن الشر أو مواطن الشبهة، ولذلك التقوى: هي أن يحترز الإنسان من المحرمات وأن يتبع ما أمر النبي عليه الصلاة والسلام به ويجتنب

ما نهى عنه، والتقوى: هي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، وقد عرف التقوى غير واحد من السلف كطلق عليه رحمة الله، قال: تقوى الله: أن تطيع الله على نور من الله ترجوا ثواب الله، وأن تجتنب معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله، وهذا من أجمل وأحسن التعاريف لتقوى الله سبحانه وتعالى.

قال: [بذلك دان الأتقياء وأفصحوا]، أي: يجب على المؤمن أن يفصح بهذا القول، والإفصاح: هو أن يبين الإنسان ما يعتقد، وليس المراد بذلك المعنى الخاص، فعند أهل اللغة: الفصاحة: هو أن يكون الإنسان بليغاً، وهذا معنى أدق من المعنى الأصلي، فالإفصاح: هو أن يبوح الإنسان، لا أن يكتفي بقلبه فقط، ولذلك قد جمع بين الأمرين، قال: وقل، ثم قال: وأفصحوا، أي: بينوا من غير شبهة ومن غير إضمار، بل يجب على المؤمن أن يبين قوله.

ولا يفهم من قول المصنف عليه رحمة الله تعالى بقوله: [قل غير مخلوق كلام مليكنا]، ولا قوله: [وأفصحوا] : أن الإنسان لا يعتقد ويكتفي بالقلب كلا، وهذا له أصل في كلام الله سبحانه وتعالى، ولذلك قال الله

عز وجل ﴿ :قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ [البقرة:136]، فالإنسان يقول لأن الأصل في قوله أنه يوافق ما يعتقد، لذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام لما سئل عن الإسلام، قال) :الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله ، والشهادة: هو أن تعلن وتخبر بما وقر في قلبك.

نقف عند هذا القدر ونكمل إن شاء الله عصراً.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

❊❊❊

حكم التوقف في القول أن كلام الله غير مخلوق

[ولا تك في القرآن بالوقف قائلاً كما قال أتباع لجهم وأسجحوا.]

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين:

لا زال المصنف عليه رحمة الله تعالى يتكلم على مسألة كلام الله سبحانه وتعالى، وأن الله عز وجل قد تكلم على الحقيقة، وأن القرآن الكريم كلام الله جل وعلا ليس بمخلوق، وحينما ظهر قول الجهمية قول الجهم بن صفوان ومن تبعه، امتنع وأمسك بعض من ظن التورع أو الخوف، فأمسكوا عن القول في هذه المسألة، فقالوا: إنا لا نقول أن القرآن مخلوق ولا نقول أنه ليس بمخلوق.

وذهب إلى هذا بعض من يظن فيه الخير والعلم، وظنوا أن ذلك مسلك وسط، وكذلك ظنوا أو زعموا أن هذا فيه خلاصاً ومخرجاً من هذه الفتنة، وهؤلاء فيهم شبه من الجهمية، وتأثرهم بقول الجهمية ظاهر، وذلك أن الذي دفعهم إلى هذه المسألة، أي: الإمساك عن القول فيها، مع تقرر وإجماع هذا القول عند السلف الصالح من الصحابة والتابعين، هو

التورع أو الخروج من الخلاف، وبعضهم لم يقابل قول المبتدعة ولم يشر إلى هذه المسألة إشارة، ومعلوم أن هذا نوع من الإمساك وعدم القول بأن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق.

والواجب على من أراد الصواب والحق أن يجابه أهل البدع بما يخالف بدعتهم، ولذلك الصحابة عليهم رضوان الله تعالى لم ينقل عنهم كثيراً من النصوص من القول بأن القرآن ليس بمخلوق؛ لأن البدعة لم تنشأ في عصرهم، فلا حاجة إلى إظهار هذا القول، ولذلك لا يقال: أنه يجب على العامي أو المتعلم أن يتعلم أن كلام الله سبحانه وتعالى ليس بمخلوق، بل يقال: يجب عليه أن يتعلم أن الله عز وجل تكلم على الحقيقة، لكن إذا كان ثمة قول لأهل البدع ظاهر فيجب عليه أن يعتقد خلافه وأن يعلن خلافه.

وقد كانت مسائل الاعتقاد، ومسائل الأسماء والصفات مسلمة تجري على ظاهرها، إثباتاً لها على الحقيقة، وإنما كانوا يطلقون الإجمال على سائر الأسماء والصفات على الظاهر وعلى الحقيقة، ولكن لما ظهرت أقوال المبتدعة من القول بخلق القرآن ونحو ذلك، أصبح أمثال هذه المسائل

علماً على أهل السنة، ويجب على المسلم الذي أراد المنهج الحق واتباع السنة أن يعلن القول بأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق، وأن الله عز وجل تكلم به على الحقيقة بحرف وصوت ليقابل قول المبتدعة.

ولذلك قال المصنف عليه رحمة الله تعالى هنا، بعد أن بين أن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق، قال: [ولا تك في القرآن بالوقف قائلاً] ، أي: تتوقف وسطاً بين هؤلاء وهؤلاء يحملك على ذلك التورع، فما حملك أنت على التوقف إلا الهيبة من قول الجهمية أئمة الضلال، قال: [كما قال أتباع لجهم وأسجحوا] : الجهم بن صفوان هو من أئمة المبتدعة، وقد أخذ عقيدته هذه من الجعد بن درهم ، و الجعد بن درهم قد أخذ عقيدته من ابن سمعان ، و ابن سمعان قد أخذها من طالوت ، و طالوت قد أخذها من لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا هو أصل عقيدة الجهمية، ولذلك قد نفوا صفات الله سبحانه وتعالى بالإطلاق.

ويظهر هنا أن المصنف عليه رحمة الله يرى أن من أمسك عن هذه المسألة هو كقول أتباع الجهم ، ولذلك قال:

]ولا تك في القرآن بالوقف قائلاً كما قال أتباع لجهم وأسجحوا. [

ومعلوم أن أتباع الجهم قالوا: بأن القرآن مخلوق، ولم يمسكوا، ولكنه أراد بذلك أن يبين أن من سلك الوقف، فإنه تابع لقول الجهم وأتباعه، ومتهيب لهذه المسألة، حتى ذهب إلى هذا وتهيب القول بهذه المسألة بعض أئمة المسلمين ومن ينتسب إلى السنة، وعلى رأسهم من المتأخرين الإمام الشوكاني عليه رحمة الله، فإنه قد قال في هذه المسألة بالتوقف.

ومنهم من لم يقرر في ذلك شيئاً وقال: أن هذه المسألة لا تزيد من الأحكام الشرعية شيئاً، فيقال: أن ثمة حلال من الأمور التعبدية يكون حراماً، وثمة أمر من الحرام يكون حلالاً، لأن النصوص سواءً قلنا مخلوقاً أو ليس بمخلوق، فإنه لا فرق، فإن الكتاب يتلى والأحكام منه تؤخذ، هذا قول ضلال، فإن العبادة كما أنها في الجوارح كذلك هي في الاعتقاد، فإنه ليس للإنسان أن يقول: وصفنا الله عز وجل بكذا أو وصفناه بكذا، فهو المعبود الحق المتفرد بالجلال والعظمة، ونحن نعبده ونصرف العبادة له، فسواءً وصفناه بهكذا أو وصفناه بكذا، أو شبهنا أو عطلنا فهذا قول أئمة

الضلال، ويجب على المؤمن الموحد أن يصرح بقول الحق وألا يخالف وألا يتهيب قولاً دل الدليل عليه.

***

إجماع الصحابة أن القرآن كلام الله غير مخلوق

وقد أجمع الصحابة عليهم رضوان الله تعالى على القول بأن كلام الله ليس بمخلوق، ولذلك قد ثبت عن **عبد الله بن عباس** كما روى **ابن جرير الطبري** من حديث **علي بن أبي طلحة** عن **عبد الله بن عباس** : أنه قال في قول الله سبحانه وتعالى ﴿ :**غَيْرَ ذِي عِوَجٍ** ﴾[الزمر:28] ، قال: غير مخلوق، وقد روى **البخاري** عليه رحمة الله تعالى في كتابه التاريخ الكبير من حديث **سفيان بن عيينة** ، قال: أدركت جماعة من السلف منهم **عمرو بن دينار** ، قال: نحواً من سبعين رجلاً يقولون: إن القرآن كلام الله ليس بمخلوق، وقد رواه **الدارمي** و **اللالكائي** في اعتقاد أهل السنة من حديث **سفيان بن عيينة** عن **عمرو بن دينار** من قوله، ونسبه لجملة من الصحابة عليهم رضوان الله تعالى، وقد قطع غير واحد من السلف بكفر من قال بأن كلام الله مخلوق، وقالوا: من قال أن القرآن مخلوق فقد كفر.

ولذلك قد روى **اللالكائي** في اعتقاد أهل السنة وغيره من حديث **سفيان الثوري** ، قال: قال لي **حماد بن أبي سليمان** : لا يدخل علي هذا الكافر، وجاء في لفظ: هذا المشرك -يعني :**أبا حنيفة** -فإنه يقول بأن القرآن مخلوق، والمتقرر عند أئمة أهل السنة كالإمام **أحمد** عليه رحمة الله، وقرره غير واحد من أئمة الإسلام على أن **أبا حنيفة** عليه رحمة الله تعالى يقول ويوافق أئمة السلف بأن القرآن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق، وهذا هو الصواب عنه، وهذا هو قول الأئمة الأربعة، وأما ما ينسب لـ**أبي حنيفة** عليه رحمة الله تعالى، وما حكاه عنه **حماد بن أبي سليمان** فإما أن يكون قولاً سابقاً، وإما أن يكون شبه عليه بمثل هذا، والذي عليه المحققون أنه يقول بما قال به السلف عليهم رحمة الله.

[ولا تقل القرآن خلق قرأته فإن كلام الله باللفظ يوضح.]

قال: [ولا تقل القرآن خلق قرأته] ، بمعنى: حينما تقرأ القرآن فلا تقل: أن هذا المقروء مخلوق، وذلك لشبهة قد طرأت عليك، فتظن أن هذا الصوت الذي تتكلم به إن كان صوتك فهو مخلوق، فتظن أن كذلك المتلفظ به مخلوق أيضاً، وهذا من الشبه التي دفعت بعض أئمة أهل الضلال من

الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والكلابية إلى القول: بأن كلام الله مخلوق، ولذلك يقال: إن قارئ القرآن حينما يقرأ القرآن، فإن الصوت صوته، والكلام كلام الله وهذا معلوم، فإذا ارتجل رجل كلام غيره فيقال: هذا صوت فلان والكلام كلام فلان، ولذلك يقال هنا: إن القارئ حينما يقرأ القرآن الصوت صوت القارئ، والكلام كلام الباري.

***

حكم قول لفظي بالقرآن مخلوق

وأما هذه المسألة: مسألة لفظي بالقرآن، هل هو مخلوق أو ليس بمخلوق؟ هذه المسألة قد أحدثها بعض الجهمية فقالوا: لفظي بالقرآن مخلوق، وبعضهم من أراد تمسكاً بالسنة، أراد مقابلة الجهمية فقال: لفظي بالقرآن ليس بمخلوق، ولذلك يقال: إن المؤمن الموحد يجب عليه أن يعتقد أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق، وأن مسألة اللفظ هي بدعة محدثة، ولذلك يقول الإمام أحمد عليه رحمة الله: اللفظية جهمية، فإذا أطلقت هذه الطائفة: اللفظية، فالمراد بهم هم الذين يقولون: لفظي بالقرآن مخلوق، ولذلك قال الإمام أحمد عليه رحمة الله: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع.

والحق أن يمسك الإنسان عن ذلك فيقول: القرآن كلام الله ليس بمخلوق، وإذا قيل له: إذا تكلم القارئ وقرأ القرآن فماذا يقال؟ فيقول حينئذ: الصوت صوت القارئ، والكلام كلام الباري، فلا يتطرق لمسألة الخلق ولا غيره لأنها مسألة حادثة.

ولذلك إنما ضل من ضل من أئمة الضلال بسبب كثرة تفريعاتهم وعدم إجرائهم لمسائل الاعتقاد على ظواهرها حقيقة من غير لزوم.

فلا يلزم من بعض الصفات صفةً أخرى، فأنت حينما تثبت صفةً اليد لله سبحانه وتعالى أو صفة القدم أو صفة الساق، فهل يلزم من ذلك أن تثبت لله جسماً؟ هذا الذي فر منه المبتدعة، فنفوا صفات الله سبحانه وتعالى وأبطلوها، ولذلك يسمون أهل السنة: المجسمة، لأنهم يثبتون الأسماء والصفات لله سبحانه وتعالى، فهم يثبتون لله يداً، ولله سمعاً وبصراً وعيناً وقدماً، ولله ساقاً مما جاء في صفات الله سبحانه وتعالى، قالوا: فهؤلاء يثبتون لله جسماً، بناءً على قاعدتهم أو ما استقر في أذهانهم: أن الصفة يلزم منها صفة أخرى، وهذا اللزوم إنما حصل لشيء في نفوسهم من التشبيه، ولذلك توسع كثير من الغلاة في الإثبات فأثبتوا لله سبحانه وتعالى كثيراً من الصفات ما أنزل الله عز وجل بها من سلطان، فقالوا: إن الله عز وجل يتكلم، إذاً: فله لسان، و خلوف فم الصائم أطيب عند الله من رائحة المسك، إذاً: فله أنف وأثبتوا صفة الشم ونحو ذلك، فهذا كله إنما حملهم على ذلك هو التشبيه الذي استقر في أذهانهم: أن

معرفة الطيب لا تكون إلا بشم وأنف، وأن الكلام لا يكون إلا بلسان وفم، فهذا إنما حصل عندهم من التشبيه، وإلا لو قيل لهم: أن الله عز وجل يقول ﴿ :لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾[الشورى:11] ، فأبعد المثلية مطلقاً تبتعد حينئذ عن الأمرين، تبتعد عن التشبيه والتعطيل، وتبتعد أيضاً عن إحداث صفات أخرى يلزم من هذه الصفة التي تثبتها.

ولذلك أهل السنة يمرون الصفات على ما هي عليه، يثبتونها حقيقةً لله سبحانه وتعالى من غير تأويل ولا تحريف، ولا تعطيل ولا تكييف، ويمسكون عما زاد عن ذلك ولا يفرعون، ولذلك حينما قال الإمام أحمد عليه رحمة الله في المسألة، قال: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، إنما حمله على ذلك قول الجهمية لأن أهل السنة لا يقولون بذلك، ومن قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع، أي: أحدث هذه المسألة.

ولذلك المسألة مسألة اللفظية ينبغي للإنسان أن يمسك عنها، ولذلك قال المصنف عليه رحمة الله تعالى هنا، قال: [ولا تقل: القرآن خلق قرأته] ، أي: حال قراءتك له لا تقل أنه مخلوق فأمسك عن هذا، فالكلام كلام

الله سبحانه وتعالى تكلم به عن حقيقة، [فإن كلام الله باللفظ يوضح]

، أي: هذا اللفظ الذي تتلفظ به هو صوتك، والكلام في الحقيقة هو كلام

الله سبحانه وتعالى ليس بمخلوق.

❊❊❊

إثبات رؤية الله تعالى يوم القيامة

[وقل يتجلى الله للخلق جهرةً كما البدر لا يخفى وربك أوضح.]

هنا يريد المصنف عليه رحمة الله تعالى أن يثبت صفة التجلي لله سبحانه وتعالى، والمراد بذلك رؤية الله سبحانه وتعالى وتجليه لعباده يوم القيامة، والدليل على ذلك ـ المقصود بالتجلي: الرؤية ـ: أن موسى عليه الصلاة والسلام لما سأل الله عز وجل أن يراه تجلى الله للجبل، فالله سبحانه وتعالى يتجلى لعباده يوم القيامة ليروه، وهذه المسألة مع المسائل السابقة، وهي مسألة: كلام الله، ومسألة: الرؤية، ومسألة: النزول، ومسألة: العلو، هذه الصفات هي بالجملة التي ضل فيها أهل البدع، وكانت فيصلاً بين أهل البدع وغيرهم.

فمن أراد أن يعرف أهل البدع وأهل السنة في باب الأسماء والصفات فعليه بهذه الصفات الأربعة، فإن من ضل في صفة أخرى لا بد أن تكون هذه معها، ولا يمكن لأحد من أهل البدع أن يضل في باب صفة غير هذه الصفات ولا تكون إحدى هذه الصفات معها، صفة كلام الله عز وجل ورؤية الله ونزوله وعلوه واستواؤه.

والله سبحانه وتعالى يتجلى لعباده، وتجليه هنا يتضمن علو الله سبحانه وتعالى، ولذلك قال: [كالبدر] ، وهذا مما يدل على أن الناظر في سفل والمنظور إليه في علو، وهذا من دلالات إثبات علو الله سبحانه وتعالى، والعلو لله جل وعلا على نوعين: علو مكان وعلو منزلة، علو المكان يتضمن استواء الله عز وجل على عرشه وما تفرع عن ذلك من صفات.

قال: [وقل يتجلى الله للخلق جهرةً] ، جهرةً: المراد بذلك المبالغة في الوضوح والظهور، وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى على عباده، ولا يعلم لأحد من السلف من الصحابة والتابعين أن أنكر صفة الرؤية.

تفسير قوله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة

واحتج بعض المبتدعة بقول يروى عن مجاهد بن جبر عند تأويله قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾[القيامة:22] ، قال مجاهد : منتظرة، أي: منتظرة لثواب ربها، فيقال: إن قول مجاهد بن جبر عليه رحمة الله في هذه الآية لا يقال أنه أراد بذلك تأويلاً، ولكنه يحمل على أنه يرى أن هذه الآية ليست من آيات الصفات مع إثباته لصفة

الرؤية في تأويلات أخرى، لآي أخر في كلام الله سبحانه، فهو قد أثبت رؤية الله عز وجل في غير ما موضع، بل ثبت إثباته لرؤية الله عز وجل في هذه الآية، كما حكى ذلك غير واحد عنه كـابن جرير الطبري و الدارمي وغيره.

وهذا نظير بعض الآي في كلام الله سبحانه وتعالى التي قد اختلف فيها قول السلف من التابعين وغيرهم، هل هي من آيات الصفات أم لا؟ فهذا الاختلاف لا يدل على نفي الصفة وإنما يدل على الاختلاف في الآية: هل هي من آيات الصفات أم لا؟ فمن قال: إنها ليست من آيات الصفات فهو لا ينفي الصفة الواردة في هذه الآية لإثبات ذلك من وجه آخر.

وآيات الصفات التي قد اختلف فيها السلف عليهم رحمة الله: هل هي من آيات الصفات أم لا؟ نحو سبعة مواضع في كلام الله، منها هذا الموضع ﴿ :وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾[القيامة:22] ، الموضع الثاني ﴿ :فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾[البقرة:115] ، الموضع الثالث ﴿ :يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾[القلم:42] ، الموضع

الرابع ﴿ :وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾[الذاريات:47] ، يأتي الكلام عليها في أفرادها بإذن الله عز وجل كل في موضعه.

والذي عليه عامة السلف من الصحابة والتابعين: إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى، بل لا يعلم عن أحد من السلف من الصحابة والتابعين أنه أنكر صفة الرؤية، وأما تأويل مجاهد بن جبر فهو أنه رأى أن هذه الآية في موضعها على معنىً آخر، وأنها ليست من آيات الصفات مع إثباته صفة الرؤية من وجه آخر.

ولذلك قد صنف أئمة الإسلام عليهم رحمة الله في هذه المسألة مصنفات في إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى، وأن الله عز وجل يرى حقيقة، قد روي هذا عن نحو من عشرين من الصحابة كما ذكر ذلك يحيى بن معين عليه رحمة الله كما نقله عنه الإمام الدارقطني عليه رحمة الله تعالى في كتابه الرؤية، وقد صنف في رؤية الله سبحانه وتعالى غير واحد من الأئمة كـابن شاهين و ابن النحاس و يحيى بن عمر الكناني وكذلك الإمام الدارقطني ، وقد ذكر الإمام الدارقطني عليه رحمة الله عن يحيى بن معين أنه قال: ثبت عن سبعة عشر من الصحابة إثبات

رؤية الله سبحانه وتعالى، وقد جمعها **ابن القيم** عليه رحمة الله تعالى في كتابه حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح وزاد على هذا العدد وفي بعضها ضعف.

تفسير السلف لقوله تعالى: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة

وقد ثبت عن غير واحد من السلف أنهم قالوا في قول الله سبحانه وتعالى ﴿ :لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:26]، إن الزيادة: هي رؤية الله سبحانه وتعالى، ومنهم من قال: إن الحسنى هي رؤية الله عز وجل، ومنهم من قال: إن الحسنى الجنة، والزيادة: هي رؤية الله سبحانه وتعالى، وهذا مروي عن **مجاهد بن جبر** وغيره.

وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، ولذلك أشار إليه المصنف عليه رحمة الله، قال: [وقل يتجلى الله للخلق جهرةً كما البدر..]، فالكاف هنا: للتشبيه وما: زائدة، قال: كما البدر، وهو القمر التام حينما يكون بدراً فإنه يرى من غير خفاء لشدة وضوحه وقوة سطوعه، ولذلك يسير السائر بالليل في ليلة البدر ليرى طريقه لقوة ضوء القمر، والتشبيه هنا ليس للمرئي بالمرئي ولكن لحال الرؤية بالرؤية، وهذا من باب

التقريب لا من باب التشبيه، ولذلك قد روى **البخاري** و **مسلم** هذا الحديث

حديث **جرير بن عبد الله البجلي** عن النبي عليه الصلاة والسلام، قال :

)**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر** .

إثبات الرؤية لا يستلزم منه التشبيه

]وليس بمولود وليس بوالد وليس له شبه تعالى المسبح.]

يقول هنا: [وليس بمولود وليس بوالد] ، إيراد المصنف عليه رحمة الله تعالى لهذا النفي أراد بذلك أن يبين أن إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى لا يلزم من ذلك تشبيه بغيره، وهذا فيه رد على من اتهم أهل السنة بأنهم مجسمة حينما يثبتون أن الله عز وجل يرى على الحقيقة، قالوا: فأنتم تثبتون لله جسماً، يقال: وما الدليل؟ قالوا: وهل يرى إلا الجسم، قيل لهم: لماذا قلتم: وهل يرى إلا الجسم؟ قيل: هذا أمر محسوس، قيل: بما أنكم قلتم أن هذا الأمر محسوس فهذا تشبيه، جلبكم على هذا القول وهي مسألة الجسم هو تشبيه، وهو أنكم اعتدتم في الحياة وفي تعامل الناس أن الإنسان لا يرى الشيء إلا إذا كان جسماً، والله عز وجل قد أخبر عن نفسه بقوله ﴿ :**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ**

الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:11] ، فأهل السنة لا يثبتون جسماً ولا ينفونه، لكنهم يثبتون الصفة ويتوقفون عما عدا ذلك، لأن إثبات الجسم قدر زائد عن النص، فيجب الإمساك عنه.

ولذلك هنا أراد أن يرد على أهل البدع الذين يطعنون بأهل السنة حيث إنهم يشبهون.

***

تنزيه الله عن الولد والمولود

قال: [وليس بمولود] أي: ليس بمتفرع عن غيره، والمراد بالمولود هنا هو المتولد عن غيره، والتولد عن الغير له صور كثيرة، لا كما يفهم... أنه يكون بحال الوضع ويكون قبل ذلك بالمزاوجة ثم يكون وضعاً ونحو ذلك.. لا، هو التولد عن الغير، أي: الخروج منه، فقد يتولد شيء من شيء سواءً بمزاوجة أو غير مزواجة، ولذلك إذا أخرج عود من شجرة تولد هذا العود من هذه الشجرة، وإذا أخذ ماء من غدير تولد هذا الماء منه، أي: أخذ منه وفصل منه.

فالله عز وجل ليس بمولود وليس بوالد، أي: لم يتولد من شيء ولم يتولد منه شيء، والله عز وجل خالق كل شيء، وأراد بذلك عليه رحمة الله المصنف أن ينفي التشبيه مع إثباته لرؤية الله سبحانه وتعالى، وهذا فيه قطع لطريق المبتدعة في مواجهتهم ومقابلتهم لأهل السنة.

كل معطل مشبه وكل مشبه معطل

قال: [وليس له شبه تعالى المسبح] : كل من عطل أو شبه أو أول فإنه قد انقدح في قلبه تشبيه قبل أن ينطق بما قال، ولذلك يقول العلماء: كل معطل مشبه وكل مشبه معطل، وذلك لشيء قد وقر في نفسه، فكل من قال: إن الله عز وجل ليس بسميع وليس ببصير ونحو ذلك، أي: عطلوا أسماء الله عز وجل وصفاته، فإنما حملهم على ذلك شيء قد وقع في نفوسهم سيء، فأرادوا تنزيهاً فوقعوا في التعطيل.

وأهل السنة يثبتون الصفات من غير تمثيل، وينزهون الله سبحانه وتعالى عن النقائص من غير تعطيل، بخلاف المبتدعة الذين وقعوا وضلوا في هذين البابين فمثلوا وعطلوا، لكن أهل السنة قابلو التمثيل

بالإثبات ونفوا التمثيل، وقابلوا التعطيل بالتنزيه ونفوا تعطيل أسماء الله عز وجل عن حقيقتها، فكل ما يخطر في بال الإنسان وفي عقله أن الله كذلك فالله فوق ذلك، ولذلك يجب أن يعتقد الإنسان أن الله سبحانه وتعالى فوق ما يتخيله المتخيلون، فالإنسان بفطرته يتخيل كل مذكور يطرأ على مسامعه وإن ذكر الله عز وجل وصفته وهو معذور بذلك، لكن يجب أن يعلم أنه ليس كمثله شيء، وأن يعلم أنه إن تخيل الله عز وجل على صورة فليعلم أن الله غير ذلك وفوقه.

قد يقال عن سبب تعطيل المعطلة ومخالفتهم لقول الله سبحانه وتعالى ﴿ :لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورى:11] :

إن نفي المثلية لله سبحانه وتعالى لا يعني تعطيلاً، وذلك أن الله عز وجل أراد الأمرين: أراد نفي المثلية وأراد إثبات الحقيقة، فلله عز وجل سمع وبصر وليس كمثله شيء، فلا بد من الإثبات ولا بد من نفي المثيل، ونفي المثيل هنا في مواجهة ما في فطرة الإنسان وما ينقدح في قلبه وذهنه من المماثلة.

ومعلوم أن الإنسان حينما يذكر له رجل من الناس أو يحكي له أحد الناس أنه قابل فلان بن فلان، فإنه يتبادر إليه هيئةً معينة، وإن لم يكن يذكر ذلك الرجل أوصافه، ولذلك كثير من الناس يقول لأحد حينما يسمع عنه كثيراً، يقول: إنني أسمع عنك وتخيلتك على غير هذه الصفة مع أنه لم يوصف له، لأنه ينقدح في ذهن الإنسان صورةً معينة، لكنه يجب عليه في حق الله عز وجل ألا يعتقدها، ولذلك الإنسان لا يمكن أن يشبه أحداً لم يره إلا بشيء قد رآه، إما على جهة كمال الصفة، وليس المراد به الكمال هو الرفعة ولكن ما به تمام القدر، وإما بجمع صفات متنوعة فيه.

والمقصود من ذلك: أن الإنسان حينما يذكر له شيء، فإنه ينقدح في ذهنه تشبيه، وهذا التشبيه على نوعين: إما أن يكون على هيئة رجل قد رآه أو صفة مخلوق قد رآه، فجذبها بتمامها على هذا الرجل، وإما أن يكون بمجموع صفات قد رآها فجمعها وجعلها لهذا الرجل، ولا يمكن أن يتخيل مخلوقاً قد ذكر عنده على هيئة لم يرها، فإن الإنسان لا يتخيل إلا شيئاً قد رآه، ولذلك حينما يذكر لك أن فلاناً قد رأى مخلوقاً غريباً، فإنه يتبادر إلى

ذهنك شيء معين وإن لم يكمل كلامه، وهذا الشكل المعين حينما تتخيله فقطعاً أنك قد رأيته إما في يقظة أو في منام.

ولهذا عندما آتي إلى شخص وأقول له: خذ ورقةً وقلماً وارسم لي شكلاً لم تره، فهل يمكن؟ فلا بد أن يرسم شكلاً قد رآه، أو تقول له: ابتكر لي شكلاً لم تره! فإنه سيأتي بأشكال مجموعة ويلفق من هنا وهنا، وهذه الأشياء تكون في النهاية أنها قد رآه إما في حال يقظة أو منام.

إذاً: فالإنسان كل ما يتخيله في عقله فهو مخلوق، فإن وقع في تشبيه أو وقع في تخيل لأي صورة كانت فهي تشبيه، ولذلك ينزه الله عز وجل عن ذلك، ويعلم أن الله فوق ذلك، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى ﴿ :لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾[الشورى:11] ، وشيء: عام نكرة في سياق النفي تفيد العموم، كل شيء ما كان في خيال أو ما كان تلفيقاً من صفات المحامد ونحو ذلك التي يجمعها الإنسان، أن الله عز وجل فوق ذلك، لضعف الإنسان عن الإدراك، فإذا كان الإنسان يضعف عن إدراك الحقيقة لو تمكن منها في هذه الدنيا كما سأل موسى ربه سبحانه وتعالى أن يره ﴿ :قَالَ لَنْ تَرَانِي ﴾[الأعراف:143] ؛ وذلك أنه لا

يستطيع، فلما تجلى الله عز وجل للجبل جعله دكاً، ولو مكن من إدراك الحقيقة لم يستطع، فكيف بأن يتخيلها؟

ولذلك عقيدة المؤمن في مسألة الأسماء والصفات: أن يثبتها على الحقيقة بما يليق لله سبحانه وتعالى من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل، وينفي عن الله سبحانه وتعالى النظير مطلقاً، وهذا هو عقيدة المسلم، ولذلك المصنف عليه رحمة الله تعالى احترز هنا بقوله، أي: بعد أن أثبت رؤية الله سبحانه وتعالى، قال: مع ذلك أنني أقول إنه: [ليس بمولود وليس بوالد وليس له شبه تعالى المسبح].

فكما أنه يرى لا يعني أنه يرى كرؤية غيره، وأن الله سبحانه وتعالى يتجلى لعباده.

إنكار الجهمية لرؤية الله عز وجل

]وقد ينكر الجهمي هذا وعندنا بمصداق ما قلنا حديث مصرح

رواه جرير عن مقال محمد فقل مثل ما قد قال في ذاك تنجح. [

يقول: [وقد ينكر الجهمي هذا وعندنا] : تقدم أن الجهمية قد أنكروا رؤية الله سبحانه وتعالى، وذلك أنهم قد أنكروا العلو أصلاً، وأنكروا

سائر صفات الله سبحانه وتعالى، فالجهمية إنما يعبدون عدماً، لأنه لا يمكن أن يكون أحد إلا بصفات، ولذلك يقال: المعطل يعبد عدماً والمشبه يعبد وثناً، ولذلك هنا نص على الجهمي، وذلك أنهم ينفون رؤية الله سبحانه وتعالى؛ لأنهم ينفون سائر أسماء الله وصفاته، فهم ينفون سائر الصفات كالوجه واليد والقدم، ولذلك الجهمية يعبدون عدماً.

يقول: [وقد ينكر الجهمي هذا وعندنا بمصداق ما قلنا حديث مصرح].

والمراد بقوله هذا: هو رؤية الله سبحانه وتعالى وتجليه لخلقه يوم القيامة، يقول: [بمصداق ما قلنا] ، أي كما قلنا: إن الله سبحانه وتعالى يرى ومع ذلك ليس بوالد ولا مولود، ودليله قول الله سبحانه وتعالى في سورة الإخلاص ﴿ :قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ *اللَّهُ الصَّمَدُ *لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ *وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:1-4].

تواتر الأحاديث في إثبات الرؤية

]بمصداق ما قلنا حديث مصرح

رواه جرير عن مقال محمد فقل مثل ما قد قال في ذاك تنجح.]

حديث جرير بن عبد الله البجلي قد رواه البخاري عليه رحمة الله تعالى، فقال: حدثنا مسدد حدثنا يحيى حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله ، ورواه الإمام مسلم عليه رحمة الله تعالى أيضاً من هذا الطريق من حديث إسماعيل به، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال) :إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته .

ورؤية الله سبحانه وتعالى متواترة جاءت فيها أحاديث كثيرة، وحديث جرير بن عبد الله البجلي رغم أنه في الصحيحين إلا أن أهل الضلال من المبتدعة وغيرهم قد طعنوا فيه، ولا أعلم أحداً من أهل السنة فضلاً أن يكون من أئمة النقاد من الحفاظ قد طعن فيه، سوى الإمام علي بن المديني عليه رحمة الله، قد طعن فيه بسبب قيس بن أبي حازم ، و قيس بن أبي حازم هو من كبار التابعين قد أدرك الخلفاء الراشدين، إذاً: فقد أدرك النبي عليه الصلاة والسلام وروى عن جرير بن عبد الله ، ومعلوم أن الذي يريد أن يسلم مع النبي عليه الصلاة والسلام فوجد النبي

عليه الصلاة والسلام ميتاً فإنه لا يكون صحابيا، ولذلك يقول الذهبي عليه رحمة الله تعالى: كاد أن يكون صحابياً.

ومن طعن فيه فقد طعن فيه من وجهين:

الوجه الأول: قالوا: أن علي بن المديني قد نقل عن العطار أنه قال :قيس بن أبي حازم منكر الحديث، ولا أعلم من أئمة السنة من طعن بـقيس بن أبي حازم سواه، أي :العطار ، وسائر الأئمة على بيان فضله وجلالته فهو من أجل التابعين، فقد أدرك الخلفاء الراشدين الأربعة.

وهذا الحديث قد روي بأصح الأسانيد، بل قد جاء من غير طريق إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير ، قد رواه الدارقطني وغيره من حديث عامر بن شراحيل الشعبي عن حذيفة بن اليمان ، وجاء أيضاً من حديث أبي هريرة عليه رضوان الله تعالى، فهو مروي من وجوه عدة.

وإثبات صفة الرؤية ليست بخاصة في باب الحديث ولكنها قد جاءت في آيات، وأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة.

الوجه الثاني: أنه قد روي عن علي بن المديني عليه رحمة الله أنه سئل عن هذا الحديث، قال: أأقبل حديث أعرابي بوال على قدميه يقصد به قيس بن أبي حازم ، وهذا قد نقله عنه الخطيب البغدادي في التاريخ وغيره، منهم من نفى هذا النقل عن علي بن المديني عليه رحمة الله، ومنهم من أثبته وقال: إنه أجاب في الفتنة حينما امتحن الإمام أحمد عليه رحمة الله في مسألة خلق القرآن، وكذلك هذه مسألة الرؤية وسئل عن ذلك، قالوا: فأراد بذلك تعريضاً، ومثل جلالة قيس بن أبي حازم ومن في طبقته من كبار التابعين لا تعل بهم الأحاديث، بل من جاء بعهد بطبقة لا يعل به الحديث إذا كان من الثقات بتفرده، ولا أعلم أحداً من الأئمة الحفاظ أعل حديثاً بتفرد تابعي سوى ما ينسب لـعلي بن المديني في هذا الموضع.

والذي يظهر والله أعلم أنه ليس بثابت على ظاهره، وإن ثبت عن علي بن المديني فإنما كان مكرهاً على هذا القول؛ وذلك أن بعض أهل السنة قد نفاه عن علي بن المديني عليه رحمة الله.

الرد على المعتزلة في إنكارهم الرؤية

وقد طعن في هذا الحديث المعتزلة من وجه آخر ، وقالوا: إن هذا الحديث وما في حكمه هو من خبر الآحاد، وأخبار الآحاد لا تقبل في مسائل الاعتقاد، وهذا قول باطل من وجوه:

الوجه الأول: أن رؤية الله سبحانه وتعالى ثابتة من وجوه عدة في السنة تصل إلى درجة التواتر، وقد أثبت غير واحد من الأئمة أن رؤية الله عز وجل ثابتة بعدد من يستحيل تواطؤ النقلة على الكذب فيه أو مخالفة الصواب، ولذلك قد جاءت فيه الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يزيد على عشرين حديثاً، وقد جاء عن الصحابة في أكثر من سبعة عشر صحابياً قالوا بإثبات رؤية الله سبحانه وتعالى، وصنف في هذا جماعة من الأئمة عليهم رحمة الله تعالى في إثبات أن الله عز وجل يرى يوم القيامة، وقد جمعوا فيه من الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صح وما لم يصح كما تقدم كيحيى بن عمر الكناني وكذلك ابن شاهين و النحاس والإمام الدارقطني عليه رحمة الله.

وهذه المسألة، أي: مسألة التواتر ومسألة الآحاد هي من المسائل التي قد انزلق في بابها المبتدعة والضلال، ولذلك يرد على ردهم بأن هذا الحديث من أخبار الآحاد: أن هذا الحديث أولاً قد وصل إلى درجة التواتر كما حكى فيه غير واحد من الأئمة على رأسهم الإمام **يحيى بن معين** وكذلك الإمام **الدارقطني** وكذلك الإمام **السيوطي** عليه رحمة الله وقبله الحافظ **ابن حجر**.

وجوب العمل بخبر الآحاد

الوجه الثاني: هو أن مسألة تقسيم الحديث إلى آحاد ومتواتر مسألة لا تسلم، وذلك أن ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجب العمل به سواءً كان آحاداً أو متواتراً، وذلك أننا لو قلنا: بأن الآحاد التي تروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الأخبار التي تروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منها آحاد ومنها متواتر، فما هو الآحاد وما هو المتواتر؟ فقد اختلف العلماء عليهم رحمة الله تعالى في حد الآحاد كحد أعلى في التعريف المستفيض والمشهور، واتفقوا في تعريف أدناه: وهو الذي يرويه واحد عن واحد، واختلفوا في حد الأدنى من المتواتر

على أقوال، ويقال لمن قال بتقسيم الحديث إلى آحاد ومتواتر: ما الفائدة من هذا التقسيم؟ قالوا: إن الخبر الذي يكون متواتراً فإنه يفيد علماً ضرورياً.

فيقال: إن العلم الضروري هو الذي يسلم به الإنسان من غير نظر، فكيف عرفت أن هذا الحديث متواتر؟ لم تعرفه إلا بالنظر في طرقه، ولذلك قد أثبت أنه متواتر بالنظر، فأنت أثبت حقيقةً بالنظر ثم بنيت عليها ، وكذلك الآحاد لم يتبين لك أنه آحاد إلا بالنظر، ثم جعلت الإيمان به من باب النظر، فيقال: إن هذا التقسيم لا يفيد صحةً أو ضعفاً على قول الجميع، فإذا قالوا: إن الآحاد بأقسامه ما الفائدة من تقسيمه إلى غريب وعزيز ومشهور ومستفيض، هل يفيد ذلك صحةً أو ضعفاً؟ قالوا: لا، لا بد من النظر في الأسانيد، إذا كان لا بد من نظر في الأسانيد فما الفائدة من هذا التقسيم؟ هذا مما أدخله المتكلمون في علوم الاصطلاح وفي علوم الحديث، وهو مما لا فائدة فيه، بل قد اتكأ عليه أهل البدع في رد السنة، ومنها في هذا الموضع.

فائدة تقسيم خبر الآحاد

وحينما نشأ تقسيم الخبر إلى آحاد ومتواتر، ولم يكن له ثمرة من جهة البدعة، قد سكت عنه أئمة أهل السنة باعتبار أنه موافق للنظر، أن من الآحاد ما يرويه واحد عن واحد، ومنها ما هو كثرة بغلبة الظن أن الكثرة لا تتواطأ على الكذب وأن الواحد يتطرق إليه الخطأ، ولكنهم بعد ذلك قالوا: إن خبر الواحد يفيد الظن والمتواتر يفيد اليقين، ثم بعد ذلك جاءت طائفة أخرى قالوا: إن خبر الآحاد يفيد الظن والله عز وجل يقول في كتابه العظيم ﴿ :اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات:12] ، فردوا أخبار الآحاد، فمنهم من قال: نرد أخبار الآحاد في باب الاعتقاد، ومنهم من قال: لا نعمل بأخبار الآحاد مطلقاً، فعرضوها على أهوائهم فردوا كثيراً من السنة من هذا الباب، وأصل هذه المسألة هو تقسيم الحديث إلى آحاد ومتواتر.

فيقال: إن ما ثبت في السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسناد يرويه واحد عن واحد إلى النبي عليه الصلاة والسلام، يجب الإيمان به واعتقاده كما لو جاء في التواتر، ولذلك الله عز وجل قد أمر بطاعة نبيه

وأمر بالتسليم له، والانقياد له، وقرن طاعته بطاعة نبيه عليه الصلاة والسلام مع أن القرآن كله متواتر، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم منها متواتر ومنها غير ذلك، فجعلها من جهة الإيمان والتسليم والطاعة سواء، ومن جهة المعصية والمخالفة سواء، ولذلك يقال: أن ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأي إسناد كان وصح ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجب العمل به، ولكنه قد يستفاد من هذا في مسألة الكفر، فيقال: إن من أنكر أو جحد شيئاً متواتراً كفر، أو من تأول أو جحد شيئاً ليس بمتواتر فإنه لا يكفر.

يقول: [رواه جرير عن مقال محمد فقل مثل ما قد قال في ذاك تنجح].

أي: في مثل ما قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: إن الله عز وجل يتجلى لعباده فيرى يوم القيامة على الحقيقة، والأدلة في ذلك من كلام الله سبحانه وتعالى كما تقدم، ومن ذلك قول الله عز وجل ﴿ :كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾[المطففين:15] ، يعني: الكفار والمجرمون محجوبون عن رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، فإذا كان هؤلاء محجوبون يدل على إثبات الرؤية لله سبحانه وتعالى من قبل

أهل الإيمان، وقد كان السلف عليهم رحمة الله يشددون في هذه المسألة، ويضللون ويبدعون من أنكر رؤية الله سبحانه وتعالى، ولذلك يقول الإمام الشافعي عليه رحمة الله: من أنكر رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، فإنه يخشى عليه ألا يرى الله عز وجل يحجب من رؤيته.

ولذلك حينما ناظر الإمام الشافعي عليه رحمة الله بشر المريسي وهو ممن يرى الحلول، وأن الله عز وجل في كل مكان، وينفي علو الله سبحانه وتعالى واستواءه على عرشه، بل كان من ضلاله إذا سجد يقول في سجوده يقول: سبحان ربي الأسفل! فـ الشافعي عليه رحمة الله تعالى لما ناظره وتمسك برأيه وأدبر، قال عنه: والله ما يفلح.

❊❊❊

إثبات صفة اليد لله تعالى

]وقد ينكر الجهمي أيضاً يمينه وكلتا يديه بالفواضل تنفح. [

يقول: [وقد ينكر الجهمي أيضاً يمينه] : وحرف قد إذا دخلت على الفعل المضارع فإنها تفيد تقليلا، وتفيد تحقيقاً وهو المراد هنا، [وقد ينكر الجهمي أيضاً يمينه] ، باعتبار أنه ينفي الصفة كلها أصلاً، وأراد المصنف عليه رحمة الله تعالى باليمين هنا: أنه ينفي كلتا اليدين، والله سبحانه وتعالى كلتا يديه يمين، فقد جاء في صحيح الإمام مسلم عليه رحمة الله ذكر الشمال وهي غير محفوظة بل هي شاذة.

وهنا مثَّل باليد يريد أن الجهمية ينفون وينكرون صفات الله سبحانه وتعالى عامة، واليد هي من صفات الله سبحانه وتعالى الذاتية.

قال: [وكلتا يديه بالفواضل تنفح] ، أي: أنه لا يلزم أن يعتقد المؤمن أن لله عز وجل يميناً وله يداً أخرى، وأن يكون هذا التقسيم كتقسيم أيدي المخلوقين: يمين وأخرى فثمة فاضلة ومفضولة، فكلتا يديه متشابهتين بالفضل، ولذلك يقول: [وكلتا يديه بالفواضل تنفح] ،في رواية فيما أذكر هنا، قال: [وكلتا يديه بالفواضل تنضح].

أدلة إثبات اليد لله تعالى

إثبات صفة اليد لله سبحانه وتعالى، فقد جاءت فيها أحاديث كثيرة جداً، بل قد جاء في بيان مدلولها في كلام الله سبحانه وتعالى ما لا يحصى من دلائلها، وقد جاء في كلام الله سبحانه وتعالى ذكر صفة اليد على ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: بالإفراد، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ :تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾[الملك:1] ، وجاءت بصفة التثنية كما قال الله عز وجل ﴿ :بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾[المائدة:64] ، وكما قال الله عز وجل ﴿ :لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[ص:75] ، الثالثة بصفة الجمع، يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ :وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات:47] ، ولله عز وجل سبحانه يدان، وأما ما جاء بالإفراد والجمع فإنه يجوز في لغة العرب ذكر التثنية بالإفراد من باب الجنس، فتقول: وطئت بقدمي أو برجلي أرض فلان أو البلد الفلاني وتريد: بقدميك، لا تريد بذلك أنه بقدم دون أخرى، وكذلك تقول في باب الإفراد: سمعت بأذني ورأيت بعيني وتريد بعينيك، وكذلك في باب الجمع فتقول:

لي آذان ولي عيون ولي أرجل أمشي بها، ولذلك التثنية هي التي لا تحمل على غيرها، فيكون لله سبحانه وتعالى يدين.

فقد جاء في مسند الإمام أحمد ذكر اليمين، وذكر اليد الأخرى بالأخرى، وجاء في مسلم بالشمال وهي غير محفوظة، وقد جاء في الصحيح أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (:وكلتا يديه يمين ، يريد نفي ما يتطرق إلى ذهن الإنسان أن اليد إذا جاءت أطلقت اليمين فإن ما يقابلها شمالاً أقل منها مكانةً ومنزلة فهذا ليس بمراد، ولذلك نفاه بقوله (:وكلتا يديه يمين ، أي: من جهة المنزلة والمكانة

قوله تعالى: (والسماء بنيناها بأيد واختلاف السلف في تأويلها

وصفة اليد أثبتها سائر السلف من الصحابة والتابعين، ولا أعلم أحداً من السلف من نفاها، ولكن عند قولهم في قول الله سبحانه وتعالى ﴿ :وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ ﴾[الذاريات:47] ، قالوا: قد روي عن مجاهد أنه قال: بقوة، فهذا من المواضع في كلام الله سبحانه وتعالى

التي قد اختلف فيها السلف: هل هي من آيات الصفات أم لا؟ مع إثبات **مجاهد** نفسه لصفة اليد في مواضع أخرى، فهو يثبت صفة اليد لكنه في هذه الآية لا يرى أن الآية هذه من آيات الصفات، لم؟ لأنه يرى أن هذا معروف ومسلم به في لغة العرب وأن ثمة جمع، فيقال: إيد، ويقال: أيد، قالوا: فالإيد هي المراد بها القوة، ونظير هذا خلافهم عند قول الله سبحانه وتعالى ﴿ :يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾[القلم:42] ، قالوا: أي شدة، ومنهم من حملها على ظاهرها: إثبات صفة الساق لله سبحانه وتعالى، وكذلك هذا مروي عن **مجاهد** ، فإنه قال: عن شدة، وروي كذلك عن **عبد الله بن عباس**.

فيقال: هذا معروف في لغة العرب في أن الساق تكون بمعنى الشدة، ولذلك تقول العرب: قد كشفت الحرب عن ساقها، أي: عن شدتها، والمراد بذلك ﴿ :يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾[القلم:42] ، أي: عن شدة وهول يوم القيامة، فلا يستطيع من لم يسجد في الدنيا لله سبحانه وتعالى أن يسجد يوم القيامة، وهذا لا يعني اختلافاً في ذات الصفة وإنما يعني اختلافاً في الآية: هل هي من آيات الصفات أم لا؟ وهذا أيسر بكثير، مع

أن عامة العلماء عليهم رحمة الله تعالى على أن هذا الموضع في هذه الآية هي من صفات الله سبحانه وتعالى.

إثبات صفة النزول وبيان شبه من أنكرها

]وقل ينزل الجبار في كل ليلة بلا كيف جل الواحد المتمدح.[

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين:

يقول ابن أبي داود عليه رحمة الله: [وقل ينزل الجبار في كل ليلة] : صفة النزول لله سبحانه وتعالى كما تقدم، هي من الصفات التي يفرق فيها بين أهل السنة وأهل البدعة، وذلك أن المبتدعة ينفون صفة العلو لله سبحانه وتعالى أصلاً وإن أثبتوها لله سبحانه وتعالى قدراً، ولذلك ذهب الجهمية والمعتزلة إلى نفي علو الله سبحانه وتعالى واستوائه على عرشه، فقالوا: إن الله عز وجل ليس بمستو على عرشه، وتأولوا قول الله جل وعلا في غير ما آية في كتابه العظيم بذكر الاستواء، كقوله جل وعلا ﴿ :الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:5] ، قالوا: استوى بمعنى: استولى، وجعلوا منه قول الشاعر الأخطل النصراني:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف أو دم مهراق

وهذا تحريف لكلام الله سبحانه وتعالى، فاستوى غير استولى، وقد شابهوا اليهود في تحريفهم لمعاني كلام الله سبحانه وتعالى، فالله جل وعلا حينما أمر اليهود بقوله ﴿ :وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ [البقرة:58] ، دخلوا الباب وقالوا: حنطة، فزادوا حرفاً كما زاد الجهمية حرفاً في استوى، قالوا: استولى، فلام الجهمية كنون اليهود تحريفاً لكلام الله سبحانه وتعالى، وذلك أنهم ينفون الاستواء، ويجعلونه بمعنى استولى، وهذا يتضمن معنىً فاسداً: وهو أن استولى تدل على أن ثمة مالك متجبر قادر قبل الله، وهذا معنىً باطل من اعتقده فقد كفر.

ولذلك العلماء عليهم رحمة الله تعالى، متفقون على كفر الجهمية وإخراجهم من الإسلام، والله جل وعلا لعلوه مكاناً وقدراً، واستوائه على عرشه حقيقة ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، والسماوات أطباق: سماء تليها سماء كما جاء في قصة الإسراء والمعراج، ونزول الله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا نزولاً يليق بجلاله وعظيم سلطانه.

ومن نفى نزول الله سبحانه وتعالى كالجهمية وغيرهم؛ فإنما نفاه لأنه تضمن معنىً فاسداً في قلوبهم من التشبيه، ومن المعاني الفاسدة التي

تضمنتها قلوبهم فنفوا النزول، وقولهم: إن الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا، فهل يخلو من ذلك عرشه؟ وقالوا: إن الثلث الأخير من الليل أو الثلث الأوسط -في رواية- ينتقل من بلد إلى بلد، فهل يقال: إن الله عز وجل ينزل على الدوام وينافي ذلك استواؤه على عرشه؟

فيقال: إن هذا إنما استقر لدى المبتدعة؛ لأنهم قد شبهوا الخالق بالمخلوق، وذلك أن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، فمن زعم أن الله عز وجل حينما ينزل إلى السماء الدنيا يخلو منه عرشه، لم يأت هذا المعنى إلا لمشابهة قد انقدحت في الذهن، فيقال: إن الله عز وجل ينزل على الحقيقة نزولاً يليق بجلاله وعظيم سلطانه.

فأهل البدع تأولوا، فقالوا: تنزل رحمته، قالوا: لقرينة جاءت في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن الله عز وجل يقول) :هل من مستغفر فأغفر له، هل من داع فأستجيب له؟ ، قالوا: وهذا المراد بالنزول، وهذا تأويل للصفة عن وجهها، وهو تعطيل للمعنى أيضاً، فالله سبحانه وتعالى ينزل على الحقيقة كما هو الأصل.

الروايات الواردة في النزول والجمع بينها

وقد جاء في ذلك أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاء ذكر النزول في ثلاثة أوقات في الليل: جاء أنه في الثلث الأخير من الليل، وجاء أنه في الشطر الأخير من الليل، وجاء أنه في الثلث الأول من الليل، وثمة رواية رابعة: أنه ينزل إذا مضى الثلث الأول من الليل، فيبقى الثلثان ينزل فيهما الله سبحانه وتعالى.

فذكر الثلث الأول من الليل غير محفوظ، وذكر الثلث الثاني غير محفوظ أيضاً، والصواب روايتي: نزول الله سبحانه وتعالى في الثلث الأخير من الليل، وفي الشطر الأخير من الليل، والمراد بالشطر: النصف، قال): إذا مضى الشطر الأول من الليل ينزل الله سبحانه وتعالى ، فذكر نزول الله عز وجل في الثلث الأول من الليل أو الشطر الأول من الليل أو الثلث الأوسط غير محفوظ، والصواب نزول الله سبحانه وتعالى في الثلث الأخير والشطر الأخير من الليل، وذلك في كل ليلة ينزل الله سبحانه وتعالى، ولذلك جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة وغيره، قال :)إذا مضى ثلثا الليل ينزل الله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا ، وجاء

في رواية) :**إذا مضى شطر الليل الأول ينزل الله سبحانه إلى السماء الدنيا .**

هنا وصف الله سبحانه وتعالى بالجبار فقال: [وقل ينزل الجبار في كل ليلة] : هذا الاسم لله سبحانه وتعالى قد جاء في قول الله ﴿ :الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾[الحشر:23] ، وذكر هذه الصفة بخصوصها في هذا الموضع، لأن نزول الله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا ليس نزولاً لصفة جبروته ونقصاً فيها ليطلع على عباده أو يدنو منهم، ولكن الله عز وجل علمه واحد على الكمال المطلق، وإحاطته بعباده على الإحاطة المطلقة، فهو سبحانه وتعالى يسمع القريب والبعيد على السواء؛ ولذلك يقول الله جل وعلا عن نفسه ﴿ :وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[البقرة:186] ، وهذا في كل وقت.

سبب تخصيص الثلث الأخير من الليل بالنزول

وإنما نزول الله سبحانه وتعالى في الثلث الأخير من الليل من باب التعظيم لهذا الوقت والتفضيل له عن غيره، لا من باب سماع الدعاء أو الإحاطة بأحوال العباد كما تبادر هذا المعنى إلى أذهان بعض المبتدعة فنفوا

النزول كله، أرادوا بذلك تنزيهاً لله سبحانه وتعالى فوقعوا في أعظم من ذلك وهو التعطيل.

العبرة في باب الاعتقاد بالاتباع لا بحسن القصد

ويجب على كل معتقد وعلى كل موحد أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى أعلم بنفسه من غيره، فإذا جاءت الصفات والأسماء فإنها تمر كما جاءت، وأن رسوله عليه الصلاة والسلام أعلم الخلق بالله وأدراهم به، فإذا لم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً مما يخالف الحقيقة من تأويل أو تشبيه، فالواجب على المؤمن في ذلك الاتباع، وأن يعلم أيضاً أن الله سبحانه وتعالى فوق ما يتخيله إنسان، وهذه قاعدة عامة لو طبقها المسلم في كل صفة لسلم له دينه، ولأنصف في باب الأسماء والصفات.

فعليه أن يعتقد أن الله عز وجل فوق خياله، وأن أهل البدع ما وقعوا في بدعتهم إلا من هذا الباب، وأن حسن النية لا يدل على صلاح العمل، فمن أراد تنزيهاً لله وتعظيماً له بمعنىً فاسد فإن ذلك لا يغنيه من الحق شيئاً، ولذلك بشر المريسي عليه لعنة الله، أراد تعظيم الله سبحانه وتعالى،

وأن الله عز وجل مع عباده في كل مكان، فدفعه ذلك المعنى وذلك التعظيم إلى مخالفة الصريح مما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام، فكان يقول في سجوده: سبحان ربي الأسفل!! أي: أن الله عز وجل مع عبده في علو وفي دنو، والذي حمله على ذلك تنزيه الله عز وجل، وهذا من أعظم مداخل الشيطان.

ولذلك الله سبحانه وتعالى بين ضلال كفار قريش ومروقهم من الحق إلى الباطل وثبوت كفرهم وضلالهم، مع أن الله عز وجل وصفهم بقوله ﴿ :وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[الكهف:104] ، فاعتقاد الإنسان وظنه سلامة ما في قلبه بهذا الفعل وصلاح نيته لا يدل على صلاح العمل، فلو دل على صلاح العمل لدل على نجاة وصلاح كفار قريش، ولما كفروا وخرجوا من الإسلام لأنهم أرادوا بذلك التقرب من الله عز وجل وإحساناً.

نفي التكييف عن صفات الله

يقول: [بلا كيف] : والمراد بالكيف: هو السؤال عن الكيفية، ومعناه: هو السؤال بكيف؟ فتقول: كيف ينزل، كيف يتجلى، وكيف يرى وكيف

يسمع وكيف يبصر؟! هذا السؤال بدعة، ولذلك قد جاء المنع من ذلك عن السلف، ويكفي في ذلك عدم وروده عن الصحابة بل عن النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك أن الكيف ينافي قول الله سبحانه وتعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[الشورى:11] ، وأن الله عز وجل لا تدركه الأبصار، ولا تدرك حقيقته العقول، وأن الله سبحانه وتعالى لا يرى في هذه الدنيا، ولذلك قال المصنف هنا: [بلا كيف] ، أي: أن التكييف محال، فمن سأل بكيف فإنه يريد السؤال عن الحال، والسؤال كذلك عن المثلية والنظير، وهذه منتفية عن الله سبحانه وتعالى.

ولذلك قد ثبت عن ربيعة الرأي شيخ الإمام مالك عليه رحمة الله أنه سئل عن الاستواء، فقال: الاستواء معلوم، والإيمان به واجب، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، وهذا مروي عن أم سلمة كما رواه اللالكائي وغيره ولكنه معلول، واشتهر عن الإمام مالك عليه رحمة الله، أنه سأله رجل عن الاستواء، فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، قال: وما أراك إلا رجلاً مخاصماً فأمر به فأخرج.

ولذلك يجب على المتبع والموحد أن يتجنب السؤال في أمثال هذه المسائل، وأي مسألة مولدة في هذا الباب لم تثبت في الكتاب والسنة يجب الإحجام عنها، وأي سائل يسأل عن ذلك يجب أن يزجر؛ لأن ذلك يجرئ على غيره، فإن الإنسان يدفعه ذلك إلى الإكثار والسؤال عن كل صفة، وإخراج صفة على صفة أخرى من باب اللزوم، وهذا مما ضل فيه أهل البدع.

قال: [جل الواحد المتمدح] : والواحد أي: هو الفرد، ولذلك من أسماء الله عز وجل: الواحد، يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ :قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ *اللَّهُ الصَّمَدُ *لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ *وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:1-4]، [المتمدح]، أي: الممدوح بجميع صفات المحامد، فلله سبحانه وتعالى الكمال المطلق في صفاته كلها، وكأن المصنف يريد هنا أن لله عز وجل الكمال في صفاته كلها، وأن إثبات الكمال لا يلزم منه إثبات الكيفية، وأن إثبات الكمال من غير كيفية، من علامات الكمال أيضاً لله عز وجل، ومن علامات النقص للإنسان، وذلك أن الله سبحانه وتعالى لا تدركه العقول، ولا تحيط به الأبصار، وأنه سبحانه محيط بكل شيء.

معاني السماء والحكمة من نزول الله إلى السماء

]إلى طبق الدنيا يمن بفضله فتفرج أبواب السماء وتفتح. [

يقول هنا: [إلى طبق الدنيا] : السماء تسمى: طبق، وإنما سميت السماء: سماءً لعلوها، ولذلك تقول العرب: كل ما علاك سماك، ويسمى الجو: سماء، والسحاب: سماء، وقد وصف الله عز وجل الطير أنها ﴿ :فِي جَوِّ السَّمَاءِ ﴾[النحل:79]، وكذلك يسمى السقف: سماء لعلوه وارتفاعه، يقال: سما فلان سمواً إذا ارتفع وعلا عن غيره لمكانته ومنزلته، فهي تسمى السماء من هذا الوجه، وتسمى طبقاً أيضاً؛ لأن السماء طباقاً كما وصفها الله سبحانه وتعالى.

[إلى طبق الدنيا] ، أي: مما كان قريباً من الدنيا وهي السماء الدنيا.

[يمن بفضله] : أراد بذلك أن يبين بقوله: [يمن بفضله] : أن نزول الله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا منةً لعباده ورحمةً بهم لا لحاجة ونقص كما تقدم، وأن ذلك من الفضل الذي أراده الله سبحانه وتعالى لعباده، وأن الله لا يريد بذلك سماع شكوى وسماع دعاء ونحو ذلك، ولكنه رحمةً بعباده وفضلاً ومنة.

قال: [فتفرج أبواب السماء وتفتح] : السماء لها أبواب، وهذا ثابت في أحاديث كثيرة منها:

ما جاء في الصحيحين من حديث أنس : أن النبي عليه الصلاة والسلام لما كان معه جبريل استفتح له أبواب السماء، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ :لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ [الأعراف:40] ، فالنبي عليه الصلاة والسلام لما عرج به جبريل إلى السماء كان يستفتح له كل سماء، فيقول له الملائكة: من؟ فيقول: جبريل، فتقول: هل معك من أحد؟ فيقول: محمد، فيفتح له، وهذا يدل على أن السماء حسية حقيقية، وأنها مغلقة ولها أبواب.

]يقول: ألا مستغفر يلق غافراً ومستمنح خيراً ورزقاً فيمنح.]

وهذا ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله كما في الصحيح) :إذا مضى ثلث الليل ينزل الله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: هل من داع فأستجيب له، هل من مستغفر فأغفر له؟ ،

فالله عز وجل يغفر لعباده في هذا الموضع ما لا يغفره في غيره، وذلك لفضل الزمان، وقد امتدح الله سبحانه وتعالى من يقوم الليل، ولذلك قد

ذهب جماعة من العلماء بل ذهب جماهيرهم إلى أن أفضل صلاة بعد الفريضة هي قيام الليل، وأفضل قيام الليل صلاة الوتر، وقد أقسم الله عز وجل بها، والله سبحانه وتعالى إنما شرع الوتر؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الوتر.

يقول: [ألا مستغفر يلق غافراً] : وهذا أراد به المصنف رحمه الله المعنى، وإلا فالنص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) :هل من مستغفر فأغفر له، هل من داع فأستجيب له؟ ، لا يدل هذا على أن الله عز وجل لا يغفر لعباده في غير هذا الموضع، بل الله عز وجل يغفر لمن تاب، وباب التوبة مفتوح، لكن الله عز وجل في هذا الوقت أقرب من غيره، فيجب على المسلم أن يتعرض لنفحات الرحمة التي يقبل الله عز وجل فيها لعباده.

ولذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول) :أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وليس المراد بذلك القرب الحسي ولكنه الاستجابة، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى مفسراً لهذا المعنى بقوله ﴿ :وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾[البقرة:186] ، تفسيره ﴿ :أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا

دَعَانِ ﴾[البقرة:186] ، فهذا هو تفسير القرب ﴿ :فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ] ﴾البقرة:186].

ضلال الجهمية في قولهم بالحلول

وقد ضل في هذا الباب من ضل من الجهمية الذين قالوا: إن المراد بذلك أن الله عز وجل في كل مكان، بل حملهم ذلك على أن يقولوا: إن الله سبحانه وتعالى حال بعباده، وأرادوا بذلك تنزيهاً، فقالوا: لا ينبغي أن يخلو منه مكان، وجعلوه سبحانه وتعالى حالا في عباده، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً.

بل قال غلاتهم: إن العابدين ما عبدوا إلا الله، ولذلك حار بعضهم فأنشد قائلاً:

العبد رب والرب عبد فيا ليت شعري من المكلف

واستدلوا ببعض الظواهر من القرآن كقول الله سبحانه وتعالى ﴿ :وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾[الإسراء:23] ، قالوا: قضى، والقضاء هو القدر، فيدل على أن الله قدر، ولا يكون إلا ما قدر، وذلك أن من عبد الشجر والحجر والوثن والصنم ما عبد إلا الله؛ لأن الله قضى

ولا يكون إلا قضاؤه، ونسوا أن القضاء في كلام الله سبحانه وتعالى على معنيين: بمعنى القضاء والقدر، وبمعنى الأمر، ولذلك ثبت عن مجاهد بن جبر و عبد الله بن عباس عند قوله سبحانه وتعالى ﴿ :وَقَضَى رَبُّكَ ﴾ [الإسراء:23] ، قالا: أمر ووصى، وجاء أيضاً عن عبد الله بن مسعود.

فلما سلموا لعقولهم التأويل وابتعدوا عن تفسير السلف ضلوا وانحرفوا، وقالوا: قال الله سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام حينما قابل المشركين ﴿ :وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾[الأنفال:17] ، قالوا: فالله هو الرامي، وهو القائم، وهو الجالس، وهو في عباده! ولذلك ضلوا وانحرفوا في الباب بهذا المعنى، ونسوا أن الله عز وجل قد أثبت الرمي بقوله ﴿ :وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾[الأنفال:17] ، إذاً: هو رمى، ولكن الله رمى، أي: أعان وسدد.

وكذلك في حديث أبي هريرة في البخاري : أن النبي عليه الصلاة والسلام قال) :يقول الله جل وعلا: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، قال: ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ورجله التي يمشي بها

ويده التي يبطش بها ، قالوا: وذلك أن الإنسان يتحرك بالله سبحانه وتعالى، وأن الله عز وجل حال فيه، وهذا هو مذهب الاتحادية والحلولية، قالوا: فالله عز وجل حال ومتحد بخلقه، وهذا المعنى الكفري هو الذي ذهب إليه غلاة المتصوفة في هذا العصر الذين يرون أن الله عز وجل يحل في ذوات الأولياء، وهؤلاء وإن كانوا قد كفروا بقولهم ذلك إلا أنهم أخف كفراً ممن قال: إن الله عز وجل يحل في كل مكان كما ذهب إلى ذلك الجهمية الذين يقولون: إن الله عز وجل يحل في كل شيء، حتى قالوا: إنه يحل في النجاسات تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل قال بعضهم: ما في الجبة إلا الله! أي: أن الله عز وجل فيها، يستدلون بظواهر النصوص، كقوله) :كنت سمعه الذي يسمع به .

وهذا باطل من وجهين:

الوجه الأول: أن الله سبحانه وتعالى قال) :ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، إذاً: قبل أن يتقرب العبد فالله عز وجل ليس حالاً فيه، وعلى هذا المعنى فالله عز وجل ليس حالاً إلا في الولي، فلماذا تعممون؟

الوجه الثاني: كذلك أيضاً قول الله سبحانه وتعالى) :كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها ، ما معناه؟ معناه قال: فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يمشي، وبي يبطش، أي: بعون الله، والباء هنا للاستعانة، أي: أن الله عز وجل يسدده ويوفقه إلى الخير، فالله عز وجل إذاً قد أثبت لعبده فعلاً وأثبت لعبده مشيئة وقدرة، لكنها بعد مشيئة الله سبحانه وتعالى، والمراد بذلك هو الإلهام والتسديد، وهذا لله سبحانه وتعالى خاصة، ولذلك أثبت لنبيه عليه الصلاة والسلام الرمي، قال ﴿ :وَمَا رَمَيْتَ ﴾[الأنفال:17] ، أي: الإصابة والتسديد، ﴿إِذْ رَمَيْتَ ﴾[الأنفال:17] : رميت فعلاً من جهة الفعل، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾[الأنفال:17] ، أي: سدد ووفق وصوب الرمي، فللعبد فعل ومشيئة لكنها بعد مشيئة الله سبحانه وتعالى، كما قال الله عز وجل ﴿ :وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ] ﴾الإنسان:30.]

فللعبد مشيئة خلافاً لما ذهب إليه الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبور على فعله، فكل ما يفعله مأمور به، وليس له مشيئة مطلقاً،

وقالوا: إن الإنسان من جهة فعله كالميت بيد الغاسل، وهذا قد قال به بعض أهل البدع وضلوا في ذلك.

معنى الاستغفار وشروطه

يقول: [ألا مستغفر يلق غافراً] : المستغفر: هو من يطلب المغفرة، فيقول: اللهم اغفر لي، أو يسأل الله عز وجل التوبة، والمراد بالغفران: هو ستر الذنب، ولذلك يسمى: المغفر مغفراً؛ وذلك أنه يستر الرأس حال الحرب، ولذلك النبي عليه الصلاة والسلام دخل مكة وعلى رأسه المغفر، لأجل أن يغطيه من أن يصاب، وكذلك الإنسان يسأل الله عز وجل المغفرة، وهي ستر الذنب، وقد استدل بهذا المعنى من قال من السلف: أن الاستغفار لا يعني محو الذنوب من الصحيفة، ولكنها تستر وتغطى، قالوا: فمن استغفر من ذنبه فإنه يسأل ويقرر به يوم القيامة لكنه لا يعذب به، فيقال: فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا لكن الله عز وجل لا يعذبه بذلك، وقد روي هذا عن غير واحد من السلف كـالحسن البصري وغيره.

والذي عليه جمهور العلماء: أنها تمحى، ولذلك قد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال) :الإسلام يجب ما قبله، والهجرة تجب ما قبلها،

والحج يجب ما قبله ، كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في صحيح الإمام مسلم عليه رحمة الله.

والمستغفر حينما يستغفر الله عز وجل من ذنبه، فإن كان صادقاً في توبته منيباً عازماً على عدم الرجوع، فإن الله عز وجل يغفر له ذلك الذنب، شريطة أن يكون ذلك الذنب من حقوق الله عز وجل لا من حقوق الناس، أما حقوق الآدميين فلا تغفر وهي خارجة من المغفرة، فالديون والتعدي على الناس بدمائهم وأعراضهم وأجسامهم لا يغفر للإنسان إلا بحالين:

الحالة الأولى: بإعادة الحقوق إلى أهلها.

والحالة الثانية: بالقصاص إن كان مما يكون فيه القصاص بالدماء والجروح.

أما ما عدى ذلك فلا تذهب إلا بالاستحلال، وهو أن يتحلل الإنسان من صاحب الحق سواءً كان مالاً أو دماً، ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام: (لتؤدن، وهذا قسم) :لتؤدن الحقوق إلى أهلها ، يعني: في الدنيا،)أو ليقتصن الله يوم القيامة من الشاة القرناء للشاة الجماء ،

وهذا غاية في العدل والإنصاف، ولذلك من كمال عدل الله عز وجل أن حرم الظلم على عباده مطلقاً كما قال الله سبحانه وتعالى) :يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا .

فضل الدعاء

[يلق غافراً] ، أي: ساتراً لذنبه وعيوبه، قال: [ومستمنح] ، أي: طالب خيرا، يطلب من الله عز وجل منحة من منح الدنيا أو الآخرة، فيطلب رزقه ومعاشه، وفي هذا إثبات كمال ربوبية الله عز وجل وألوهيته، ولذلك الدعاء لله عز وجل هو أعظم أنواع العبادة، ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام كما في حديث النعمان في السنن وغيرها :)الدعاء هو العبادة ، فمن دعا الله عز وجل فقد أكمل العبادة لله سبحانه وتعالى، لأن من سأل الله عز وجل ساجداً أو رفع يديه، فهو ضمناً يثبت أن الله عز وجل يسمعه، وأن الله يراه، وأن الله قادر على إعطائه سؤله فلا يسأل إلا القادر، فهو يثبت لله عز وجل ربوبيةً وألوهية وأسماءً وصفاتاً، ويثبت أن الله عز وجل يعلم ويسمع ويبصر مكانه، وأنه قادر

على الإجابة، ولذلك كان الدعاء من أعظم أنواع العبادة، حتى جعله النبي عليه الصلاة والسلام العبادة كلها بقوله) :الدعاء هو العبادة .

وقد جاء في السنن تعظيم هذه العبادة، وأن الله عز وجل إن لم يسأل يغضب، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام) :من لم يسأل الله يغضب عليه ، ولذلك ينبغي للإنسان أن يكثر المسألة لله سبحانه وتعالى لأمور الدنيا والآخرة، فإن الدعاء يتضمن عبادة الله عز وجل وإن كان من فضول الدنيا، ولكنه لا يجعل ذلك يغلب على أمر الآخرة، وذلك أنه يتضمن توحيداً لله سبحانه وتعالى، والله عز وجل يحب أن يسأل.

قال: [ومستمنح خيراً ورزقاً فيمنح] : فيه إثبات أن الله عز وجل المتفرد بالرزق والخير، وكذلك ما جاء في هذا المعنى من الإحياء والإماتة والقدرة، وإنزال الغيث ونحو ذلك.

تواتر أحاديث النزول

]روى ذاك قوم لا يرد حديثهم ألا خاب قوم كذبوهم وقبحوا.[

يقول: [روى ذاك قوم لا يرد حديثهم] : المراد بهذا هو نزول الله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا، وقد ذكرنا أنه قد جاء عن النبي عليه

الصلاة والسلام في أحاديث كثيرة منها حديث **جرير بن عبد الله البجلي** الذي تقدم، وحديث **أبي هريرة** في الصحيحين وغيرها، بل جاء ذلك عن نحو عشرين من الصحابة، وقد صنف في هذا الباب الأئمة عليهم رحمة الله تعالى، رداً على أهل البدع والضلال، الذين نفوا نزول الله سبحانه وتعالى، فممن صنف في هذا الإمام **ابن النحاس** عليه رحمة الله، وصنف في ذلك **يحيى بن عمر الكناني** ، وصنف في ذلك الإمام **الدارقطني** عليه رحمة الله كتاب: الرؤية وكذلك كتاب: النزول، وقد فصل هذه المسألة بما لا مزيد عليه شيخ الإسلام **ابن تيمية** عليه رحمة الله تعالى في رسالة سماها: شرح حديث النزول.

وقد ذكر السلف عليهم رحمة الله تعالى أن نزول الله عز وجل إلى السماء الدنيا متواتر، ولا أعلم أحداً من السلف من الصحابة والتابعين نفى نزول الله جل وعلا إلى السماء الدنيا، وقد جاء نزول الله سبحانه وتعالى في بعض الأحاديث في أوقات وهو ضعيف، كنزول الله عز وجل ليلة النصف من شعبان، ولكن قد ثبت نزوله يوم عرفة، ونزول الله عز وجل في

الثلث الأخير من الليل، وكذلك في الشطر الأخير من الليل منةً وفضلاً من الله سبحانه وتعالى.

تعظيم أقوال الصحابة والاهتمام بها

قال: [لا يرد حديثهم] : مما يدل على أنهم أطبقوا على ذلك وهم أئمة ثقات، ويريد بذلك الصحابة عليهم رضوان الله تعالى والتابعين.

قال: [ألا خاب قوم كذبوهم وقبحوا] ، أي: من كذب ما جاء عن السلف من الصحابة والتابعين وأجمعوا عليه، فإنه خاب وخسر ويستحق التقبيح والزجر والردع، فإذا أجمع الصحابة على شيء فلا يكون إلا حقاً، وإذا أجمعت الأمة وخاصةً السلف من الصحابة والتابعين على أمر فهو الإجماع الحق، ولذلك يقول الإمام أحمد عليه رحمة الله: الإجماع إجماع الصحابة ومن جاء بعدهم تبع لهم.

فينبغي لطالب العلم أن يعتني بإجماع الصحابة وأن يضبطه، وأن يديم النظر فيه سواءً في مسائل الفقه أو مسائل الاعتقاد، بل حتى في مسائل السلوك، فإن إجماعهم حجة، وأي خلاف يطرأ بعد ذلك فهو خلاف مردود مهما كان قائله، وهم خير الأمة وأعلمهم بالله سبحانه وتعالى بعد أنبياء

الله جل وعلا، ولذلك اصطفاهم الله سبحانه وتعالى لصحبة نبيه عليه الصلاة والسلام؛ وذلك لفضلهم لأنهم أبر الأمة قلوباً وأزكاهم منزلة.

والمصنف عليه رحمة الله بين جلالتهم وفضلهم في أنهم لا يرد قولهم ولا يرد حديثهم حينما يخبرون عن الله سبحانه وتعالى، وذلك أنه إما أنه لا يقال من باب الرأي وإما أنهم يروون عن النبي عليه الصلاة والسلام، فيسندون ويحيلون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ﴿ :إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم:4].

والصحابة عليهم رضوان الله تعالى كالنجوم في السماء يهتدى بها، فقد روى الإمام مسلم عليه رحمة الله في صحيحه) :أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى مع أصحابه المغرب، ثم ذهب إلى داره ثم رجع إلى صلاة العشاء فوجدهم مكانهم، فقال عليه الصلاة والسلام: لا زلتم مكانكم؟ قالوا: نعم ننتظر الصلاة، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء، فقال: النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي

أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون ، وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم ينقض أجلة الصحابة وكبراؤهم إلا وقد دبت الفتنة ووقعت الفرقة، وكلما مضت السنون في عصر الصحابة عليهم رضوان الله تعالى كلما زادت الفتنة والفرقة.

وذلك يدل على فضل هؤلاء الأخيار، وأنهم إنما فضلوا على غيرهم لا لأشخاصهم ولكن لقلوبهم، وأنهم عاينوا التنزيل وأبصروه، فكانوا أعلم الناس بالله بعد أنبياء الله سبحانه وتعالى، وهم أولى بالاتباع من غيرهم، فلا يكون فعل يفعله الصحابة عليهم رضوان الله تعالى بدعة أبداً؛ وذلك أنهم خير السلف، ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام :)لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ، فالعبرة ليست بالعمل الظاهر ولكن بعمل القلب.

فلا يتجرأ متجرئ على قول يفعله أحد من الصحابة أو يقول به أن يجعل فاعله أو قائله مبتدعاً، وإن كانت العبرة بالسنة والاقتداء بها، لكن هؤلاء لمنزلتهم وعلو مكانتهم وشرفهم وفضلهم، وأن الله عز وجل قد زكاهم

في كتابه فرضي عنهم، وأخبر أنهم راضون عنه، وهذا الوصف لا يكون إلا لمن علت منزلته وارتفعت مكانته، وهو أن يوصف بأنه راض عن الله سبحانه وتعالى، ولذلك يقول الله جل وعلا ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[التوبة:100] ، لمكانتهم ومنزلتهم عند الله سبحانه وتعالى.

وفي هذا الباب ـ أي: في باب الاعتقاد وباب الأسماء والصفات ـ لا حجة في قول أحد من الناس إلا في الكتاب والسنة وما ينقله الصحابة، وإنما قيد ذلك بأن لا يكون من قبيل الرأي، وإنما يكون من قبيل الوحي المنقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فبين عليه رحمة الله أن أولئك لا يرد حديثهم، إما لصحبتهم، وإما لجلالتهم وفضلهم ومكانتهم وأنهم من جملة الثقات كأئمة التابعين، فلا يرد حديثهم حينئذ بكل حال، فمن خالفهم قد خاب، ومن كذبهم فإنه يستحق التقبيح والذم؛ لأنه بذلك قد خالف الكتاب والسنة، فإنهم خير حملة، ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام) :خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ، والمراد بالقرن في هذا الخبر ليس هو

مائة سنة كما اصطلح عليه المؤرخون من المتأخرين، بل المراد بالقرن هنا هو حقبة زمنية، قيل: أنها عشرون سنة، وقيل: أنها ثلاثون، والصواب أنها عشرون سنة.

فالمراد بالقرن) :خير القرون قرني ، أي: من كان مع النبي عليه الصلاة والسلام،)ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ، فقد تزيد وقد تنقص عن ذلك، ولذلك يطلق بعض السلف الطبقة على العشر أو الخمس عشرة سنة كما روي ذلك عن عبد الله بن عباس ، وعن عكرمة مولى عبد الله بن عباس، وغيرهم من السلف.

ثم بعد بيان أن هؤلاء لمكانهم وفضلهم لا يردون حينما ينقلون الأخبار، وأن من خالفهم فإنه خائب وخاسر ومستحق للتقبيح، أراد أن يبين تفاوتهم في المنزلة والفضل.

❊❊❊

فضل الصحابة

فضل أبي بكر وعمر من بين سائر الصحابة

]وقل: إن خير الناس بعد محمد وزيراه قدماً ثم عثمان الأرجح.[

يقول: [وقل: إن خير الناس بعد محمد وزيراه قدماً ثم عثمان الأرجح].

وزيرا رسول الله صلى الله عليه وسلم هما أبي بكر و عمر ، وإنما يسمى الوزير: وزيراً، لأنه يشد به الأزر، فإن هذين هما أعظم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤازرةً وشداً له، ولذلك كانا أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمته؛ وذلك أنهما قد بلغا درجة الصديقية فنصرا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان بحاجة إلى النصر، فـأبو بكر نصره وآزره بمكة فهو أول من آمن به من الشيوخ، وكان صاحبه في الغار، وذكره الله عز وجل إشارةً في كتابه العظيم وكفى بذلك منةً وفضلاً ومنقبة، وكان خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين في صلاة الجماعة حينما يمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنبي عليه الصلاة والسلام يقربه ويقدمه حتى في الذكر، فحينما يذهب يذهب هو و أبو بكر ، وإذا أراد أن يذكر أحداً من

الصحابة و أبو بكر فيهم يقول :أبو بكر وفلان، وإن كان عمر فيهم قال :أبو بكر و عمر وفلان؛ وذلك لمكانتهم وفضلهم، ولذلك أجمع الصحابة عليهم رضوان الله تعالى على استحقاق أبي بكر لالخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والصحابة عليهم رضوان الله تعالى كلهم عدول، ومن قدح فيهم فقد ضل وغوى وسلك طريق المبتدعة من النواصب والروافض الذين كانوا بين طرفي نقيض، فمن مادح لقوم وطاعن في قوم، ومنهج أهل السنة في هذا الباب أن يترضى عن الصحابة كلهم، وأن يمسك عما شجر بينهم من خلاف، وأن يعتقد أن أفضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هم أهل الشجرة، وأن أفضل أهل الشجرة هم العشرة المبشرون بالجنة، وأن أفضل العشرة المبشرين بالجنة هم الخلفاء الراشدون الأربعة، وأن أفضل الخلفاء الراشدين هم أبو بكر و عمر ثم عثمان ثم علي بن أبي طالب.

ولذلك ثبت عن عبد الله بن عمر عليه رضوان الله تعالى، كما رواه ابن سعد و أبو نعيم في الحلية من حديث نافع عن عبد الله بن عمر أنه قال: كنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفضل فنقول :أبو

بكر ثم عمر ثم عثمان ، ثم نمسك لا نفضل ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، وهذا دليل على الإقرار.

فمن طعن في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن ذلك علامة الهلاك، وهو بذلك مخالف عاص لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال) :لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ، والأحاديث في فضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من أن تذكر، والحديث في هذا الباب بحاجة إلى مجلس كامل، لذا سوف نتكلم عليه في المجلس الآتي بإذن الله تعالى.

ترتيب الصحابة من حيث الأفضلية

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين:

]وقل إن خير الناس بعد محمد وزيراه قدماً ثم عثمان أرجح

ورابعهم خير البرية بعدهم علي حليف الخير بالخير منجح.[

تقدم الكلام على فضل الخلفاء الراشدين بالإجمال، وهنا يذكر المصنف عليه رحمة الله تعالى ترتيب الصحابة من جهة الفضل، وذكر أن أفضلهم

هو أبو بكر وعمر، ولذلك هنا قيد الأفضلية بما بعد محمد صلى الله عليه وسلم من أمته، وذلك أنهم خير البرية بعد الأنبياء والمرسلين، ولذا قال:

[إن خير الناس بعد محمد وزيراه] أي :أبو بكر وعمر، والوزير: هو ما يشد به الأزر، وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام فضلهما في أحاديث كثيرة على غيرهما من الصحابة عليهم رضوان الله تعالى، ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام) :ما من نبي إلا وله وزيران من أهل السماء والأرض، ووزيراي جبرائيل وميكائيل من أهل السماء، ومن أهل الأرض أبو بكر وعمر.

وقد ثبت أن الصحابة عليهم رضوان الله تعالى كانوا يفضلون في زمن النبي عليه الصلاة والسلام أبا بكر وعمر على غيرهم من الصحابة، ولذلك يقول عبد الله بن عمر كما في الصحيح: كنا زمن النبي عليه الصلاة والسلام نفضل فنقول :أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نمسك، وقد جاء ذلك من وجه آخر عن عبد الله بن عمر عليه رضوان الله تعالى عند ابن سعد وأبي نعيم في كتابه الحلية، قال: ورسول الله صلى الله عليه وسلم شاهد ولا يقول شيئاً، وهذا يدل على فضلهما ومكانتهما؛

وذلك أنهما من السابقين الداخلين في الإسلام، وممن آزر النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته.

فضل أبي بكر وعمر على غيرهم من الصحابة

وهذا هو أصل عام: أن السابقين أفضل من اللاحقين، وكلهم في فضل الصحبة يشتركون، وأن الله عز وجل قد رضي عنهم ورضوا عنه، إلا أن أبا بكر وعمر قد اشتركا في مؤازرة النبي عليه الصلاة والسلام والسبق في الصحبة، فاستحقا الفضل والمزية على غيرهم من الصحابة عليهم رضوان الله تعالى.

وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام فضل أبي بكر وفضل عمر بن الخطاب عليهما رضوان الله تعالى صريحاً على غيرهم، كما جاء في الصحيح من حديث عائشة عليها رضوان الله تعالى): أن النبي عليه الصلاة والسلام سئل أي الناس أفضل أو أحب إليك؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام :عائشة، قيل: من الرجال؟ قال: أبوها، قيل: ثم من؟

قال :عمر ، وهذا وصف في فضلهم على سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد تقدم أن منهج أهل السنة والجماعة في بيان الفضل- أي: فضل الصحابة- أن السابقين أفضل ممن جاء بعدهم، وأفضل السابقين أهل بيعة الشجرة، ثم من شهد الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأفضلهم العشرة المبشرون بالجنة، وأفضل العشرة الخلفاء الراشدون الأربعة، وأفضلهم أبو بكر وعمر، وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة: أنهم لا يقدمون أحداً من الصحابة على أبي بكر وعمر، ومن قدم أحداً من الصحابة على أبي بكر وعمر فقد ضل وتزندق، ولذلك إذا كان هذا في حق الصحابة أن يقدم أحدهم على أبي بكر وعمر، فكيف بغيرهم من أولياء الله سبحانه وتعالى، فكيف بغيرهم من خلق الله عز وجل من يقدم الضالين وغيرهم على الصحابة، لا شك أن ذلك ضلال وزندقة.

ولذلك يقول الإمام أحمد عليه رحمة الله: من قدم علي بن أبي طالب عليه رضوان الله تعالى على أبي بكر وعمر في الفضل لا في النسب، فهو رافضي زنديق، هذا فيمن قدم علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر،

فكيف بمن قدم غير **علي بن أبي طالب** عليه رضوان الله تعالى ممن هو دونه في المنزلة، بل إن **علي بن أبي طالب** عليه رضوان الله تعالى هو بنفسه يقدم **أبا بكر** و**عمر** على نفسه، ولذلك قد جاء في الصحيح من حديث **محمد بن الحنفية** وهو :**ابن علي بن أبي طالب** أنه سأل **علي بن أبي طالب** عن أفضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال :**أبو بكر**، قيل: ثم ماذا؟ قال :**عمر**، قال: فخشيت أن يقول :**عثمان**، فقلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا واحد من المسلمين.

فتقديم **عثمان بن عفان** على **علي بن أبي طالب** هو الذي عليه عامة أهل السنة، وذهب بعضهم وهم قلة من أهل السنة، وهذا ينسب لبعض السلف كـ**سفيان الثوري** وغيره بتقديم **علي بن أبي طالب** على **عثمان**، ومن قدم **علي بن أبي طالب** عليه رضوان الله تعالى على **عثمان** فقد خالف.



معنى التشيع عند المتقدمين والمتأخرين

ولذلك يقول العلماء: أن التشيع عند الأوائل إذا وصفوا أحداً من التابعين بالتشيع، فمرادهم بذلك أنه يقدم علي بن أبي طالب على عثمان، وأن الغلو في التشيع لم ينتشر ويشتهر إلا بعد ذلك من تقديم علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر، وكذلك تأليه علي بن أبي طالب إنما غلا فيه الرافضة بعد ذلك.

ثم قال: [ورابعهم خير البرية بعدهم] : والبرية: هي الخلق، ولذلك الله سبحانه وتعالى هو الذي برأها أي: خلقها، فخير البرية بعد محمد صلى الله عليه وسلم أبو بكر، وعمر، ثم عثمان، ثم علي بن أبي طالب، عليه رضوان الله تعالى.

قال: [حليف الخير بالخير منجح] : وهو: ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوج بنته فاطمة عليها رضوان الله تعالى، وأبو السبطين الحسن والحسين، وهم من أقرب الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن السابقين إلى الإسلام، وهو في الفضل بعد عثمان بن عفان عليه رضوان الله تعالى، والذي عليه عامة أهل السنة بل

إجماعهم: أن فضل الخلفاء الراشدين بحسب ترتيبهم في الخلافة، ومن قدم **علي بن أبي طالب** على **عثمان** فهو مخالف في ذلك إلا أنه لا يبدع ويضلل، ولكنه يوصف بالمخالفة لما عليه السلف، فإذا حفظ لـ**عثمان** حقه وللصحابة بالإجمال حقهم، فإنه يقال: أنه على منهج أهل السنة والجماعة إلا أنه خالف في ذلك في تقديم **علي بن أبي طالب** على **عثمان**. ولذلك إذا وصف العلماء أحداً من التابعين وجملة من أتباع التابعين بالتشيع، فالغالب أن المراد به تقديمهم **علي بن أبي طالب** على **عثمان**، ولا يريدون بذلك التشيع المعروف في عصرنا، وإذا أطلق التشيع عند المتأخرين فمرادهم بذلك تقديم **علي بن أبي طالب** على الخلفاء الراشدين كلهم، والطعن في جملة من الصحابة عليهم رضوان الله تعالى كـ**أبي بكر** و**عمر**، فمن تنقص أحداً من الخلفاء الراشدين، فقد ابتدع وضل وتزندق، ومن طعن في الصحابة بالإجمال، فقد كفر بالله سبحانه وتعالى، وحكى الإجماع على كفره غير واحد من العلماء، كالقاضي **عياض**، وكذلك **ابن عساكر**، و**ابن كثير**، وشيخ الإسلام **ابن تيمية**، و**القرطبي**، و**ابن حزم الأندلسي**، وغيرهم من أئمة الإسلام.

الطعن في الصحابة طعن في الشريعة

وذلك أن الطاعن في الصحابة عليهم رضوان الله تعالى يريد طعناً بصحبتهم لا بهم، وذلك أنه لا يجمل الطعن في أحد من الصحابة أحد إلا ويريد الصحبة، ولو أراد الطعن بأحد منهم بأفرادهم كأن يتهم أحداً منهم بالجبن، أو البخل، أو البغاء، أو السذاجة، أو الدروشة، ونحو ذلك فذاك ضال، ولكنه ليس بكافر، أما من طعن بهم بالجملة فأجمل الطعن والسب فقد كفر بالله سبحانه وتعالى، لأن الصحابة ما اشتركوا بشيء من المذمة أو سوء الخلق الذي يزعمه أهل البدع أبداً، ولكنهم اشتركوا بمزية وفضل وهو الصحبة، فمن طعن بهم في الإجمال فقد طعن في صحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

والطعن في الصحابة بالإجمال أو بأفرادهم هي بذرة يهودية؛ وذلك أنهم يريدون الطعن في الشريعة، فلما كان لا يسلم لهم أحد الطعن بالشريعة وبالإسلام والكتاب والسنة أرادوا الطعن بالحملة، ولذلك نشأ الطعن ببعض الصحابة كأبي هريرة عليه رضوان الله تعالى واتهم بالكذب، وهم ما أرادوا في الحقيقة أبا هريرة، ولكنهم أرادوا ما حمله من السنة،

فإذا طعن في أبي هريرة - ويظن البعض أن المقصود أبو هريرة نفسه - فإنه يترتب على ذلك أن الأحاديث أو جملة آلاف من الأحاديث يرويها أبو هريرة عن النبي عليه الصلاة والسلام ويتفرد بها، يريدون رد الشريعة والتنقص منها، وأن يقع في النفوس شيئاً من ذلك.

كما وقع هذا في جملة من العقلانيين من المتأخرين ممن طعنوا بالصحابة عليهم رضوان الله تعالى، لأنهم لا يستطيعون أن يطعنوا في الشريعة مباشرة، وهذا من طرائق اليهود: أن يطعنوا في الحملة لا أن يطعنوا في المحمول، وهذه حيلة خبيثة في هدم الإسلام ومعالمه: أن يطعنوا في أهل العلم والفضل، أو الصحابة وأئمة الإسلام، ولا يريدون في ظاهر أمرهم ما يحملونه، ولكنهم يريدون أشخاصه حتى يتمكن تصديقهم في القلوب، فحينئذ تسقط آراؤهم بسقوط أصحابها.

الصحابة في أعلى منازل الجنة

[وإنهم للرهط لا ريب فيهم على نجب الفردوس بالنور تسرح.]

هنا يشير إلى أنهم من أهل الجنة وقطع عليهم بذلك؛ لثبوت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول: [وإنهم للرهط] : والرهط في لغة العرب: هو ما دون العشرة، ويقال: بين الثلاثة إلى العشرة، وقيل ما هو أكثر من ذلك، قال: [لا ريب فيهم]، أي : بلا شك أن ذلك الاعتقاد حق لا ريب فيه، [على نجب الفردوس بالنور تسرح] : والمراد بالنجب: هي الإبل والنوق الكرام، وجمعها: ناجبات ونجب، وأنهم يكونون على هذه النوق يوم القيامة في الفردوس يسرحون، والفردوس: هو أعلى منازل الجنة، ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام في الصحيح) :إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى، فإنه أوسط الجنة وأعلاها، وفوقه عرش الشمس، ومنه تنسدل أنهار الجنة ، وهو أعلى منازلها.

والصحابة عليهم رضوان الله تعالى من الخلفاء الراشدين وغيرهم هم من أهل الفردوس، ولذلك قطع لهم هنا بأنهم من أهل الفردوس على نجب، أي: على نوق يسرحون فيها، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شهد لهم في أحاديث كثيرة كما في حديث أبي هريرة، وكما في حديث يقول النبي عليه الصلاة والسلام) :اسكن أحد ، وفي حديث

أيضاً عبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد في المسند والسنن) :أن النبي عليه الصلاة والسلام شهد للعشرة المبشرين بالجنة بها ، ولذلك اشتهروا بهذا الوصف: العشرة المبشرين بالجنة.

***

العشرة المبشرون بالجنة

]سعيد وسعد وابن عوف وطلحة وعامر فهر والزبير الممدح.[

وهؤلاء هم تتمة العشرة المبشرين بالجنة [:سعيد :] هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ابن عم عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى، [وسعد :] هو سعد بن أبي وقاص من بني زهرة، وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة أيضاً، وطلحة بن عبيد الله، قال: [وعامر فهر] : هو عامر أبو عبيدة بن الجراح الفهري القرشي، قال [:الزبير :] هو ابن العوام، قال: [الممدح]، أي: الموصوف بالممادح؛ وذلك لمناقبه

الكثيرة، وقد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام الشهادة لهؤلاء العشرة بالجنة، كما جاء في سنن الترمذي، وكذلك في مسند الإمام أحمد من حديث عبد الرحمن بن عوف عليه رضوان الله تعالى: أن النبي عليه الصلاة والسلام قال) :أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وسعيد في الجنة وسعد في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وطلحة في الجنة وعامر في الجنة والزبير في الجنة ، فيقال في هؤلاء العشرة: أنهم من أهل الجنة قطعاً لثبوت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهل من شهد لهم النبي عليه الصلاة والسلام بالجنة هؤلاء فحسب؟ لا، بل قد شهد النبي عليه الصلاة والسلام لغيرهم من أصحابه: كبلال وعكاشة بن محصن وأبي هريرة وعائشة وفاطمة والحسن والحسين، والأصل في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم كلهم في الجنة، واعتقاد أهل السنة فيهم: أن الصحابة عليهم رضوان الله تعالى بالإجمال في الجنة، ولا يشهد لأحد بعينه ممن لم يشهد له النبي عليه الصلاة والسلام أنه من أهل الجنة،

ولكن يطلق بالإجمال: أن الصحابة في الجنة، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال) :ألا ليذادن يوم القيامة أناس عن حوضي من أصحابي، فأقول: يا رب! هؤلاء أصحابي، فيقول الله سبحانه وتعالى: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فقال بعض العلماء: أن هؤلاء ندرة ممن ارتد من الصحابة عليه رضوان الله تعالى وعلمت ردته، وقيل: أنهم ممن كان ظواهرهم الإيمان وبواطنهم النفاق، ولم يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتغيروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذا لا يعمم، ولا يؤثر في فضل الصحابة، بل يقال: إن الصحابة عليهم رضوان الله تعالى في الجنة، ولكن لا يقال لأحد منهم ممن لم يشهد له النبي عليه الصلاة والسلام أنه في الجنة، وإنما يقال بالعموم: أن الصحابة عليهم رضوان الله تعالى فضلهم الله بالمنزلة الرفيعة والمكانة العالية، ولا يطعن بأحد منهم، ويجزم أنهم في الجنة، وأن الله سبحانه وتعالى رضي عنهم ورضوا عنه، ولذلك يأتي ذكر المصنف عليه رحمة الله تعالى فيما يأتي في بيان فضلهم، ومنزلتهم في الكتاب والسنة.

مدح الصحابة كلهم بلا مثلبة ولا نقص

]وقل خير قول في الصحابة كلهم ولا تك طعانا تعيب وتجرح.[

وهذا هو منهج أهل السنة والجماعة: أن الصحابة يمدحون كلهم بلا مثلبة ولا نقص، وأن ما وقع بين الصحابة من فتنة وفرقة وخلاف، فإنه وقع بين أهل فضل، فلا يحل الخصومة ممن هو دونهم، ولذلك وقع بين الصحابة عليهم رضوان الله تعالى من الخصومة والفتنة ما يعلم، وليس لمن جاء بعدهم ومن هو دونهم في المنزلة أن يقيم هؤلاء، لأنهم أصحاب السبق والفضل، ولذلك عمم المصنف عليه رحمة الله تعالى هنا بلزوم إطلاق الفضل لهم على العموم، قال: [وقل خيراً في الصحابة كلهم]، أي: جميعهم بلا استثناء، وأنهم من أهل الخير والفضل، فلا يعاب أحدهم ولا يثلب بشيء وقع فيه؛ وذلك لأنهم بتلك المنزلة.

وأما المنع من عيبهم والطعن فيهم؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى ذلك بالإجمال والإطلاق، فقال عليه الصلاة والسلام) :لا تسبوا أصحابي ، وأصحابه تعريفهم: هم من لقي النبي عليه الصلاة والسلام على الإيمان ومات على ذلك، فمن كان هكذا وصفه فلا يطعن فيه ولا

يثلب ولا يعير ولا يسب ولا يستهزأ به بشيء، وإن وصفه فيه أحد من أهل الفضل من الصحابة مثله، فإن الصحابة يقع بينهم من خصومة كغيرهم، لكنه لا يقيمه من جاء بعدهم ممن هو دونهم، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة وهم في ذلك الفضل والجلالة أن يسبوا بعضاً) :لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ، ولذلك الإنسان المؤمن الموحد مأمور بأن يطلق الفضل للصحابة كلهم وألا يكون طعاناً، أي: فيهم، قال:

[ولا تك طعاناً تعيب وتجرح.]

يعتمد كثير من أهل الفرق الضالة ومن تبعهم بالطعن في الصحابة بشيء قد وقع بينهم، ووصف بعضهم بعضاً، كأن يقال: قال فلان من الصحابة في فلان كذا، فهو إذاً كذا لوصف فلان فيه، فيقال: فلان وصفه فمن أنت؟! فأنت حينما تصفه بهذا الوصف تطعن فيه وليس لك هذا، فهم بينهم على منزلة سوية في الفضل، فلا يطعن فيهم من جاء بعدهم.

حكم من سب الصحابة

ولذلك اتفق أهل السنة والعلماء عامة: على أن من طعن في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعا وسبهم فقد كفر بالاتفاق، وهذا لا خلاف فيه، وأما من سب واحداً منهم كأن يصف فلاناً بالجبن أو البخل أو السذاجة أو أنه ليس بفقيه ليس بعالم ونحو ذلك ممن يطعن فيه، فهو مبتدع زائغ، كبعض الشيعة وبعض النواصب الذين طعنوا في آحاد الصحابة وبعضهم، ولم يطعنوا فيهم بالإجمال، وأما من أطلق القول، ولم يستثن إلا واحدا أو اثنين أو قلة قليلة كما يستثني الروافض آل البيت، ويطعنون في الصحابة عامة، فهؤلاء كفار خارجون عن الإسلام، وذلك لتكذيبهم الفضل الذي جعله الله عز وجل للصحابة، وما جعل الله سبحانه وتعالى لهم في المنزلة الرفيعة، فمن طعن في أبي بكر أو شهد له بالنار فقد كفر، وكذلك عمر لتكذيبه ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواتر عنه في فضل هؤلاء العشرة المبشرين بالجنة في أحاديث كثيرة..

ظهور فرق الضلال في الطعن في الصحابة رضوان الله عليهم

ويشير هنا المصنف بقوله: [لا تك طعاناً تعيب وتجرح] : نشوء فرق الضلال في الطعن في الصحابة عليهم رضوان الله تعالى بدافع النصرة لصحابة آخرين، وحملهم على ذلك الغيرة، ونشأ في الطعن في الصحابة فرقتان قديمتان، ونشأت فرقة متأخرة بعدهم، أما الفرقتان: فأولهما الشيعة الذين طعنوا فيمن قدم غير **علي** على **علي**، وبلغ في غلاتهم أن طعنوا في الخلفاء الراشدين الأربعة سوى **علي بن أبي طالب**، وفي غلاتهم من طعن في سائر الصحابة إلا آل البيت، فسبوهم وذموهم وطعنوا في أمهات المؤمنين، فهؤلاء كفار، لأنهم قد طعنوا بحملة الوحي، الذين وصل إلينا سائر التشريع عن طريقهم، فإذا قلنا: أنهم كفار فلا شريعة حينئذ مسلمة، والله عز وجل قد تكفل بحفظ دينه، وهذا من أصول ما ينقض عقيدة الرافضة، ويبين كفرهم ووضوح انحرافهم عن الإيمان.

ثم الفرقة الثاني: وهم النواصب الذين نصبوا العداء لآل البيت، وذلك بسبب غلو الشيعة في آل البيت، وطعنهم في بعض الصحابة عليهم

رضوان الله تعالى: كمعاوية وعثمان بن عفان وغيرهم، فأرادوا نصرةً فوقعوا في المذمة، وهؤلاء من جملة المبتدعة.

والنواصب أخف من الروافض؛ وذلك أن النواصب لا يطلقون بالعموم تضليل الصحابة، بخلاف الروافض الذين يطلقون بالعموم ولا يستثنون إلا آل البيت وهم عدد قليل والصحابة بالآلاف، فيضللونهم بالإجمال، بخلاف النواصب، فإنهم يطعنون في الواحد والاثنين والثلاثة والأربعة والخمسة من آل البيت عليهم رضوان الله تعالى.

والمؤمن الحق الموحد لا يطعن في أحد من الصحابة أبداً، لا بالإجمال ولا بالتفصيل، وما وقع بينهم من خلاف فإن ذلك سلم الله عز وجل منه الإنسان في زمنهم فليسلم منه لسانه، ولذلك سئل عمر بن عبد العزيز وكذلك غيره عما وقع بين الصحابة، فقال: تلك فتنة سلم الله منها سيوفنا، فلم لا يسلم الله منها ألسنتنا؟ والواجب على المؤمن أن يمسك عما وقع بين الصحابة عليهم رضوان الله تعالى، فقد يصف أحد الصحابة نظيره بشيء بينهم، فيصفه بالغدر أو الكذب ونحو ذلك، فهؤلاء في مكانة

ومنزلة سوية، وليس لأحد جاء بعدهم أن يقيم ويقول: ذلك مصيب وذلك مخطئ.

موقف أهل السنة من الفتنة التي وقعت بين الصحابة

ولكن أهل السنة فيما وقع في الفتنة بين **علي بن أبي طالب** عليه رضوان الله تعالى ومن خالفه، قالوا بالإجمال: بصواب **علي بن أبي طالب** وأن الحق معه؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام لـ**عمار بن ياسر**، كما جاء في الصحيحين) :**ويح عمار** تقتله الفئة الباغية ، فقتل في صف **علي بن أبي طالب** عليه رضوان الله تعالى، وقد أورد الإمام **الشافعي** عليه رحمة الله في باب قتل البغاة في كتابه: الأم، قصة **علي بن أبي طالب** عليه رضوان الله تعالى مع قتاله لبعض الصحابة، وطعن فيه، فانتصر له الإمام **أحمد** عليه رحمة الله فقال: إن لم يضع في باب قتال البغاة قصة **علي بن أبي طالب** فماذا يصنع؟! وذلك لظهور النص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن هذا لا يعني قدحاً بأحد من

الصحابة من خصوم **علي بن أبي طالب** بعينه، وإلحاق المذمة والمنقصة، لأنهم كلهم كانوا أهل اجتهاد وأرادوا بذلك صواباً، والله عز وجل أرحم بعباده من عباده.

***

عقيدة السلف عدم الجزم لأحد بجنة أو نار إلا من شهد له الشرع

وأهل السنة والجماعة لا يشهدون لأحد من أهل الإسلام بالجنة بعينه، وإنما يقولون: يرجى له الجنة، وذلك لغياب شيء من أركان الإيمان، وهو ما يقع في قلب الإنسان، وقد أنكر النبي عليه الصلاة والسلام على أصحابه حينما شهدوا لأحدهم بالجنة حينما قاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقصة في ذلك مشهورة، فلا يشهد لأحد ممن هو في دائرة الإسلام في ظاهره أنه من أهل الجنة إلا من شهد له النبي عليه الصلاة والسلام، ولا يشهد لأحد بالنار بعينه ما لم يتيقن موته على ذلك، أو شهد له النبي عليه الصلاة والسلام بالنار، أو جاء في كتاب الله عز وجل، كفرعون، وأبي لهب، وأمية بن خلف، وقارون، وهامان، وغيرهم ممن شهد لهم النبي عليه الصلاة والسلام أنهم في النار، أما ما عداهم فيقال: أنه من أهل النار إن مات على ما هو عليه، وأهل الإيمان يرجى لهم الجنة، وإن تيقن أنه مات وهلك على كفر، فإنه يشهد له بالنار بعينه وهذا نادر، لكنه يقال بالإجمال: أن الكفار خالدون في

النار، وأن اليهود والنصارى وغيرهم ممن خرج عن دين محمد صلى الله عليه وسلم من أهل النار خالدون فيها، فمن مات منهم على ملته فهو من أهل النار، ولا يشهد لأحد بعينه إلا من شهد له النبي عليه الصلاة والسلام.

❊❊❊

مصدر الوحي: الكتاب والسنة

]فقد نطق الوحي المبين بفضلهم وفي الفتح آي في الصحابة تمدح.[

يقول: [فقد نطق الوحي المبين بفضلهم] : الوحي تقدم أنه: الكتاب والسنة، وهما موصوفان بالإنزال والوحي، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى عن نبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ :وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم:3-4]، وذلك أن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وحي، فإن كان لرسول الله علم من الله عز وجل سابق قبل أن يسأل، أجاب السائل حال سؤاله، وإن لم يكن لديه علم من الله عز وجل سابق فإنه ينتظر الوحي حتى ينزل إليه، ولا يقول شيئاً من قبل رأيه.

والدليل على ذلك ما رواه **البخاري** و**مسلم** من حديث **يعلى بن أمية**) : **أن النبي عليه الصلاة والسلام كان بالجعرانة، فجاءه رجل وهو محرم وعليه جبة، وهو متضمخ بخلوق - يعني: طيب - فقال للنبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله! ما تقول في رجل متضمخ بخلوق وعليه جبة قد أهل بعمرة؟ فنظر إليه النبي عليه الصلاة والسلام، ثم أطرق رأسه، فنزل**

عليه الوحي، فأدبر الرجل، قال: فأخذ العرق يتصبب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم رفع رأسه فقال: أين الرجل؟ فأتي به، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: أما الجبة فانزعها، واغسل عنك أثر الخلوق، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجك ، فيه دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتكلم إلا بوحي، وأنه إن سئل في الحال فأجاب، فلعلم سابق من الله عز وجل له، وإن لم يكن لديه علم انتظر الوحي كما في هذه الحال، ولذلك القرآن والسنة يقال عنهما: الوحيان الشريفان.

قال: [فقد نطق الوحي المبين بفضلهم]، أي: بفضل الصحابة عليهم رضوان الله تعالى بالإجمال، والآيات في ذلك كثيرة، ولذلك يقول الله عز وجل ﴿ :رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[التوبة:100]، والأحاديث في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة قد تقدم الإشارة إليها، كما في الصحيح) :لا تسبوا أصحابي ، وقوله عليه الصلاة والسلام :)الصحابة أمنة لأمتي، فإذا ذهب الصحابة أتى أمتي ما يوعدون .

مدح الصحابة وبيان فضلهم

قال: [وفي الفتح آي للصحابة تمدح]

وسورة الفتح فيها من الممادح والبيان في فضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يحصى، وأشار إلى سورة الفتح بذاتها، لكثرة الآي التي تبين فضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإجمال من غير استثناء، وهذا يدل على العموم، ولذلك يقول الله عز وجل مادحاً لهم في سورة الفتح ﴿ :مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[الفتح:29]، ويقول الله سبحانه وتعالى ﴿ :لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾[الفتح:18]، وهذا دليل على رضى الله عز وجل لهم المطلق والمدح المطلق، وكذلك قال الله سبحانه وتعالى ﴿ :رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ] ﴾التوبة:100.]

وهذا يدل على أن الصحابة عليهم رضوان الله تعالى بالإطلاق أهل فضل ومدح، وأنه لا يليق بمؤمن إلحاق منقصة وعيب بأحد منهم، وإن كان الصحابة عليهم رضوان الله تعالى في الآدمية والبشرية يقع منهم من الخطأ، والزلل، والذنوب، وهذا لا خلاف فيه عند أهل السنة، فهم ليسوا

بمعصومين كما يقول الضلال من الشيعة، والرافضة الذين يقولون بعصمة آل البيت، أي: أنهم معصومون من الخطأ والزلل، فلا يوجد أحد معصوم من الخطأ والزلل بالإطلاق من الصحابة عليهم رضوان الله تعالى، بل يقع منهم الخطأ ويقع منهم الذنب، لكنهم لا يسبون به ولا يعيرون به ولا يطعنون به؛ وذلك لأنهم قد بلغوا بالمنزلة والفضل ما تجاوزوا به القنطرة، وأنهم لا يوزنون عند من جاء بعدهم في الفضل، وذلك لشيء وقر في قلوبهم، ولقوله عليه الصلاة والسلام) :**لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم** ، والمد: هو ملء الكفين المعتدلتين) :**مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيف** ، وهذا يدل على أن العبرة ليست بظواهر العمل، ولكن بما يقع في القلوب.

فلا ينتقص من أحد من الصحابة وإن جهل أمره، لأنهم كانوا أنصاراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومبلغة للدين، فلا يقال: أن فلان بن فلان من أئمة الإسلام أفضل من ذلك الأعرابي الذي جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وربط ناقته في المسجد ثم ذهب، وأن ذلك الإمام أو ذلك التابعي أفضل من ذلك الأعرابي الذي جاء وبال في المسجد ونحو ذلك،

فهذا ليس على منهج أهل السنة، بل يقال: إن الصحابة عليهم رضوان الله تعالى أفضل ممن جاء بعدهم.

وقد يقع في علم أن أحداً ممن جاء في الأمة بأفرادهم خير من بعض أفراد الصحابة، ولكنه ليس لأحد أن يقول: ذاك أفضل من ذاك، ولذلك لا يفضل أحد من الصحابة على غيره من الصحابة ممن لم يرد في حقه تفضيل بعينه، فلا يقال :عبد الله بن عباس أفضل من عبد الله بن مسعود، أو عبد الله بن عمر أفضل من عبد الله بن مسعود ونحو ذلك، فهؤلاء يقال: صحابة وفي الفضل سواء، والتفضيل يفتقر إلى نص، والفضل جاء بعمومه.

الطعن في الناقل طعن في المنقول

والخوض في مثل هذه المسائل، والمبالغة في تقييم الصحابة هذا أصله نبتة رافضية، الذين جعلوا الصحابة في الميزان، فمن غال ومن جاف في هذا الباب.

والفرقة الثالثة التي نشأت بعد ذلك هي: فرقة العقلانيين ـ وهم طوائف من المعتزلة ـ الذين أرادوا رد السنة بالطعن في الصحابة، فجاء الطعن بـأبي هريرة ؛ وذلك أنه قد روى جملةً وافرةً من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام، وتفرد بها لملازمة النبي عليه الصلاة والسلام، وأرادوا بذلك رد الوحي من وجه آخر وحيلة بالطعن بالناقل.

وبالجملة: أن من طعن في الناقل إذا كان من أهل الفضل، فإنه ما أراد الناقل بعينه وإنما أراد المنقول، ولذلك منهج العلماء عليهم رحمة الله تعالى حينما ينكرون متناً في السنة، ويرون عدم الموافقة للأحاديث الأخر، وعليه تظهر علامات النكارة، وكان رواته من أهل الفضل والجلالة، أنكروا المتن، وحفظوا لهؤلاء الرواة حقهم وفضلهم، ولم يطعنوا فيهم، بخلاف الزنادقة من أهل الاعتزال وأهل العقل، ومن نحا نحوهم من أهل البدع المعاصرة والضلالة من الملاحدة: كالعلمانيين والليبراليين وغيرهم من الذين طعنوا في بعض أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وتهكموا بهم، وأرادوا بذلك طعن ما حملوه، فإنهم لا

يستطيعون أن يطعنوا بالسنة مباشرة، وإنما لحيلة وتبع لأسلافهم طعنوا في النقلة، وما أرادوا النقلة وإنما أرادوا المنقول.

***

الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان

]وبالقدر المقدور أيقن فإنه دعامة عقد الدين والدين أفيح.[

يقول: [وبالقدر المقدور أيقن فإنه] : القدر: هو ما قدره الله سبحانه وتعالى من مقادير للخلائق، فالله عز وجل قد قسم بين الناس أرزاقهم وقسم بينهم أخلاقهم، فالله جل وعلا قد قدر وجعل لكل شيء قدراً، وجاء إثبات القدر في آيات كثيرة من كلام الله سبحانه وتعالى، وأحاديث كثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم ﴿ :إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ] ﴾القمر:49]، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾[الأحزاب:38]، وقال الله جل وعلا ﴿ :فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾[المرسلات:23]، فالله سبحانه وتعالى قد قدر كل شيء يحدث، ولذلك قد ثبت عن عبد الله بن عباس، كما رواه البخاري في كتاب الأدب، قال: كل شيء بقدر حتى وضعك يدك على كفك، أنه من قدر الله سبحانه وتعالى.

ولذلك يجب على المؤمن الإيمان بالقدر، بل لا يتحقق إيمانه بالله سبحانه وتعالى إلا أن يؤمن بالقدر، والإيمان بالقدر من أركان الإيمان، ولذلك لما

سئل النبي عليه الصلاة والسلام عن الإيمان، قال) :أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبالقدر خيره وشره وباليوم الآخر ، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة، وجاء عند الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمر عن عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى، وهذه تسمى: أركان الإيمان.

ظهور بدعة إنكار القدر

فالإيمان بالقدر من أركان الإيمان، فمن أنكر القدر فقد كفر بالله سبحانه وتعالى لتكذيبه الآيات الكثيرة، والأحاديث الكثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وظهرت بدعة إنكار القدر في أواخر عصر الصحابة عليهم رضوان الله تعالى، ولذلك قد روى الإمام مسلم من حديث عبد الله بن بريدة، وكذلك يحيى بن يعمر أنهما ذهبا إلى عبد الله بن عمر عليه رضوان الله تعالى وكان في المدينة. ليبلغوه بأن أناساً ينكرون القدر، قال: فأتينا إلى عبد الله بن عمر فقلنا: إن ناساً يزعمون ألا قدر وأن الأمر أنف، أي:

يستأنف في الحال، قال: إذا رأيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأن الله بريء منهم، ثم قال: ولا يكون إيمان أحد حتى يؤمن بالقدر، ثم أورد قصة جبريل في إتيانه النبي عليه الصلاة والسلام القصة المعروفة.

مراتب القدر

ولا يتحقق إيمان الإنسان بالقدر إلا بإيمانه بمراتبه الأربعة، ومراتب القدر الأربعة:

أولها: العلم، إثبات العلم لله سبحانه وتعالى المطلق، فيقال: إن الله عز وجل يعلم ما كان، وما يكون، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا كمال العلم، علم مطلق كامل لا يتطرق إليه نقص أو خلل، فيعلم الحوادث كلها ما مضى، وما هو في الحال، وما سيأتي، وما لم يقدر لو قدر أنه سيكون علم الله كيف يكون، وهذا غاية الكمال في العلم، فيثبت لله عز وجل العلم، والله عز وجل قد وصف نفسه بأنه ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ [الأنعام:73]، ما يعزب عن علمه مثقال ذرة، وهذا غاية في كمال العلم.

المرتبة الثانية: الكتابة، أن الله سبحانه وتعالى كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض، كتب كل شيء، ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام كما في الصحيح من حديث ابن العاص) : إن الله عز وجل كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، ولذلك جاء في الخبر من حديث عبادة بن الصامت : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال) :أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء ، فأمره الله عز وجل بما يكتب.

المرتبة الثالثة: إثبات المشيئة لله سبحانه وتعالى، وأن الله عز وجل ما شاء يكون وما لم يشأ لم يكن، ولذلك أثبت الله عز وجل مشيئةً لعبده لكنها بعد مشيئته، كما قال تعالى ﴿ :وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾]الإنسان:30. [

المرتبة الرابعة: هي الإيجاد والخلق، أي: أن الله سبحانه وتعالى خلق كل شيء، ومما خلق أفعال العباد، ولذلك أفعال العباد مخلوقة من حركاتهم، وسكناتهم، وأقوالهم، فالله عز وجل قد خلق الناس وما يعملون.

قال] :وبالقدر المقدور أيقن] : واليقين هنا: كمال الإيمان، ومراتب علم الإنسان وإدراكه يكون على مراتب، فأعلاها: عين اليقين، ثم اليقين، ثم غلبة الظن، ثم الشك، والإيمان بالقدر يكون بيقين، وذلك لأن الله عز وجل قد أمر بذلك، وأمر بالإيمان به، والنصوص في الأمر بالإيمان بالقدر وإثباته كثيرة في الكتاب والسنة.

قال: [فإنه دعامة عقد الدين] : والدعامة: هي العلامة والركيزة الواضحة البينة التي تدل على إيمان الإنسان، وفيه دليل على أن إنكار القدر دعامة على نقض دين الإنسان.

قال: [والدين أفيح] : وقد ضل في باب القدر طوائف وفرق، وتوهموا بعض النصوص في كلام الله سبحانه وتعالى وبعض النصوص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانوا بين غال وجاف، وأهل السنة وأهل الإسلام وسط بين ذلك، فالقدر مأخوذ من التقدير، والقضاء مأخوذ من الأمر والانتهاء، قالوا: قضي الأمر، أي: انتهى، إما أن يكون بالأمر الشرعي، أو يكون بالأمر القضاء الكوني، فالقدر لا يكون إلا قدراً كونياً.

أقسام القضاء وذكر من ضل فيه

أما بالنسبة للقضاء فإنه يكون على نوعين: قضاء قدري، وقضاء شرعي.

القضاء القدري: هو المرادف للقدر، فيقال: قضى الله عز وجل علي كذا، أي: كتب، ومنه قضاء الله وقدره، فيقال: قدر الله وقضى كذا، مأخوذ من انتهاء الأمر، أي: أنه حسم وانتهى ﴿ :قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف:41.]

وأما الشرعي: فهو الأمر الشرعي، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ :وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء:23]، قد ضل في هذا طوائف:

الطائفة الأولى: هم القدرية، ويسمون: مجوس الأمة، وإنما سمي القدرية: مجوس الأمة؛ لأنهم قد شابهوا المجوس بإثبات خالقين، وذلك أن المجوس يقولون: أن ثمة خالقين: النور والظلمة، فالنور خالق الخير والظلمة خالقة الشر، وهؤلاء القدرية أثبتوا خالقين، فكيف أثبتوا خالقين؟ قالوا: إن الله عز وجل لم يقدر المقادير، ولكن الإنسان هو الذي

يخلق فعله، فأثبتوا خالقين: خالق العبد، وأن العبد خلق فعله، فأصبحوا مجوس الأمة لمشابهتهم المجوس من هذا الوجه.

وقال القدرية: إن الأمر أنف، أي: أنه مستأنف في الحال، فلا يعلم إلا حال وقوعه، وهؤلاء يتضمن كلامهم إنكاراً لعلم الله، ولا يوجد أحد من الطوائف التي تنتمي للإسلام من ينكر علم الله سبحانه وتعالى بالإجمال، فينكرون المراتب: العلم، والكتابة، والمشيئة، والإيجاد بالإجمال، ولكن وجد من ينكر القدر، وينكر الكتابة، ويثبت العلم.

والقدرية يخاصمون بعلم الله سبحانه وتعالى، ولذلك يقول الإمام أحمد عليه رحمة الله: خاصموا القدرية بعلم الله، فإن أنكروه كفروا، وإن آمنوا به خصموا، فإن القدري الذي يقول: إن الله عز وجل لا يعلم ما يستقبل، فيقال: هل الله عز وجل عالم بما يأتي؟ فإن أثبت العلم خصم، فإن المراد بالقدر هو علم الله عز وجل بما يحدث، وأنه مقدر له، وإن أنكر كذب القرآن وكفر.

الطائفة الثانية: هم الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبور على فعله، وليس له خيار، وليس له مشيئة، وأن المؤمن والكافر مسيرون وليس

لهم اختيار، وعقيدة أهل السنة: أن الله خلق للمؤمن والكافر مشيئة لكنها بعد مشيئة الله، فيرون أن الخلق مسيرون ومخيرون، واستدلوا بعموم النصوص في كلام الله سبحانه وتعالى، كقول الله عز وجل فيما سبق ﴿ :وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾[الإسراء:23]، قالوا: قضى الله عز وجل بمعنى: قدر ألا تعبدوا إلا إياه، فكل عابد عبد الله فهو مجبور على هذا الفعل، فلا يمكن أن يقع شيء إلا ما قدره الله عز وجل، إذاً: فمن عبد إنما عبد الله سبحانه وتعالى.

والجبرية يقولون بالحلول: أن الله حال بكل شيء، فالله عز وجل هو الذي خلق الأصنام وأوجدها، وهو الذي أتى بالعابد ليعبد، وأمره بذلك وقدر عليه، قالوا: هذا هو عبد الله، لأنه عبد شيئاً أمره الله عز وجل به، وهذا ضلال وبدعة، وتقدم الإشارة لبعض حججهم.

من احتجاجهم بقوله سبحانه وتعالى ﴿ :وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾[الأنفال:17]، واحتجاجهم بقوله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة) : قال: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي

يمشي بها ، وقد ضل هؤلاء، ويسمون: بالحلولية والاتحادية، الذين يرون أن الله عز وجل حال في كل شيء واتحد مع مخلوقاته، فهم عباد ومعبودون، ولذلك حاروا في هذا الباب، حتى أنشد بعضهم، فقال:

العبد رب والرب عبد فيا ليت شعري من المكلف

تاهوا في هذا، فلا يعلمون من المكلف ومن الرب! وهذا بعد عن نصوص الوحي، فالله عز وجل قد أثبت لخلقه مشيئة، بقوله سبحانه وتعالى ﴿ :وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[الإنسان:30]، فالله عز وجل قد جعل للإنسان مشيئة، لكنها بعد مشيئة الله سبحانه وتعالى.

]ولا تنكرن جهلاً نكيراً ومنكراً ولا الحوض والميزان إنك تنصح.[

[ولا تنكرن جهلاً نكيراً ومنكراً] : وأراد بذلك حياة البرزخ، وهي المرحلة بين الدنيا والآخرة، وسميت برزخاً لأنها بين الدنيا والآخرة، فيجب على المؤمن أن يؤمن بأن الإنسان يمتحن ويفتتن، وأنه يأتيه ملكان يسألانه في قبره: من ربك وما دينك ومن نبيك؟ وهذان الملكان جاء في حديث أنس بن مالك عند الترمذي أن اسمهما منكر ونكير، وإسناده جيد قد مال إلى جودة إسناده الإمام أحمد عليه رحمة الله.

***

بيان أسماء الملائكة

ومن باب الفائدة: فإن أسماء الملائكة عليهم السلام أعجمية كلها إلا أربعة: وذلك كمنكر، ونكير، ومالك، خازن النار، ورضوان، فهذه الأسماء عربية وليست أعجمية، ما عدى ذلك فإنها أعجمية وليست بعربية، كذلك الأنبياء كلهم أسماؤهم أعجمية إلا أربعة: هم هود، وصالح، وشعيب، ومحمد صلى الله عليه وسلم، وما ثبت من أسماء الملائكة عليهم السلام منكر ونكير من حديث **أنس بن مالك** عند الإمام **أحمد** وكذلك عند **الترمذي** في سننه، كذلك جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ورقيب، وعتيد، ورضوان خازن الجنة، وأما عزرائيل ملك الموت فلم يصح فيه شيء عن النبي عليه الصلاة والسلام، وإنما جاء عند **أبي الشيخ** في

كتاب: العظمة، من قول ابن وهب حكايةً: أن اسمه إسرافيل، ولا يثبت في ذلك شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقول المصنف عليه رحمة الله هنا: [ولا تنكرن جهلاً] : هنا وصف بالجهالة من ينكر منكراً ونكيراً، والمراد بالجهالة: هي المعصية والذنب التي يخالف فيها الإنسان الحق، سواءً على علم أو بغير علم، فما عصي الله عز وجل إلا بجهالة، فكل معصية جهالة، وأراد بذلك هنا العموم سواء على علم أو بغير علم، يجب عليك ألا تنكر ذلك، فإن كان بعلم فقد خالفت الدليل، وظهر منك مكابرة للدليل الظاهر أمامك فأنت على علم به، وإن كان عن جهل ولم تنظر في الدليل فيجب عليك أن تبحث عنه فإنه ثابت: [لا تنكرن جهلاً] : فإن أنكرت، فإنك جاهل على الوجهين.

فيجب على المؤمن أن يعتقد أن العبد يفتن في قبره، وأنه يسأل عن ربه ونبيه ودينه، وأن المؤمن يفسح له في قبره، وأما ضمة القبر، فقد جاء في أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلها معلولة، وأما الحديث الذي جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) :لو سلم منها

أحد لسلم منها سعد بن معاذ ، جاء في رواية) :لو سلم منها أحد لسلم منها هذا الغلام ، فإنها منكرة.

قال: [لا تنكرن جهلاً نكيراً ومنكراً ولا الحوض والميزان إنك تنصح]:

وأراد بالحوض والميزان: الإيمان بالبعث، وأن الله عز وجل يبعث الناس يوم القيامة، للحساب، وأراد بإيراده الميزان هنا: الدلالة على أن الإنسان يحاسب يوم القيامة فتوزن سيئاته وحسناته، فالله عز وجل قد كتب، وأحصى على الإنسان كل شيء يعمله في كتاب ﴿ :لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾[الكهف:49]، لذلك يوضع في الميزان الحسنات والسيئات.

وقال بعض أهل السنة: أن الإنسان يوزن بنفسه، وهو قول لأهل السنة، واستدلوا ببعض الأحاديث في قول النبي عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن مسعود في ساقيه) :قال: والله إنهما لفي الميزان أثقل من جبل أحد وكان أحمش الساقين ، أما الحوض فقد جاء فيه أدلة كثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، منها ما جاء في الصحيح) :ألا ليذادن أناس

عن حوضي ، كما تقدمت الإشارة إليه، وكذلك لقول النبي عليه الصلاة والسلام) :أنا فرطكم على الحوض ، أي: سابقكم إليه.

معرفة ما يوزن يوم القيامة

والميزان قد جاء إثباته في كلام الله سبحانه وتعالى، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال الله عز وجل عن نفسه، قال ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾[الرحمن:7]، أي: الميزان الذي ينصبه الله عز وجل يوم القيامة لتوزن أعمال العباد من خير وشر، وقال بعض العلماء: إن الذي توزن السجلات كما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث البطاقة في الرجل الذي لم يعمل خيراً قط، قال) :فتعرض عليهم سجلات مد البصر، فقيل: أتنكر من ذلك شيئاً؟ فيقول: لا يا رب، فقيل: هل بقي لك شيء لم توف؟ فيقول: لا، فتخرج له بطاقة فيها: لا إله إلا الله فتوضع في كفة وتلك السجلات في كفة، فتطيش تلك السجلات وترجح: لا إله إلا الله ، وقد ثبت أيضاً أنها توزن الأعمال التي يعملها العبد، وقد جاء في حديث في وصف النبي عليه الصلاة والسلام لسورة البقرة وآل عمران :

)أنهما تأتيان يوم القيامة كغمامات أو كغيايتان تظلان الإنسان يوم القيامة .

ويكون الميزان قبل أن يقاد الناس إلى الجنة والنار، والميزان إنما كان لإقرار العباد ومخاطبتهم بما يعقلون، وإلا فالله عز وجل يحصي كل شيء، ولذلك الله عز وجل قد جعل للإنسان شهيداً من نفسه فتنطق يده، ورجله فتشهدان عليه، وكذلك بشرته، وتشهد عليه الأرض التي يمشي عليها، وجعل من الملكين من يكتب عليه الحسنات والسيئات، ولذلك يجب على المؤمن أن يؤمن بأن الله عز وجل يبعثه يوم القيامة، ويقره بما عمل من خير وشر.

والإيمان بالقدر، والإيمان بالبعث والنشور يوم القيامة الأدلة عليه من الكتاب والسنة متوافرة متواترة متضافرة، ومن شكك في ذلك كفر، بل إن الملاحدة وأهل العقل قد مالوا إلى الإيمان بالبعث والنشور، لأن بالإيمان به سلامة، ولذلك يقول أبو العلاء المعري، وهو ممن اتهم بالزندقة، حينما جاءه منكروا البعث والنشور، ماذا قال لهم؟ قال ممتثلاً:

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت: إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما

وذلك أن العقل يقول: إن الإنسان ينبغي أن يحتاط في نفسه، فإذا قال إنسان - وكان ذلك مجرد عن دليل لنفترض -: إن ثمة بعث ونشور، فالمؤمن بهذا البعث والنشور والمعد له إما سالم وإما فائز، فائز إن كان ثمة بعث ونشور، وناج وسالم إن لم يكن ثمة شيء، ومن لم يؤمن بالبعث والنشور هالك إن كان ثمة بعث ونشور، وسالم إن لم يكن ثمة شيء، وأيهما الرابح؟ من آمن، ولذلك يقول أبو العلاء:

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت: إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر، أي: الإنكار، أو صح قولي فالخسار عليكما، وهذا يخاطب به الملاحدة بالعقل، كيف والمؤمن مأمور بالإيمان، وجاءت نصوص بذلك كثيرة في الكتاب والسنة ببيان البعث والنشور، وهذا أمر من المسلمات من شكك به كفر، فضلاً عمن جحد به، فمن شكك بالبعث والنشور، وأن الله عز وجل يحشر الناس يوم القيامة ويحاسبهم عما فعلوا، فقد كفر بالله سبحانه وتعالى وخرج من الإسلام.

]وقل يخرج الله العظيم بفضله من النار أجساداً من الفحم تطرح.[

وهذا فيه دليل على إثبات الجنة والنار، وبيان أن إثبات الجنة والنار من اعتقاد أهل الإسلام، ومن أنكر ذلك فقد كذب بنصوص الكتاب والسنة، وأن الله عز وجل ما خلق الجنة والنار إلا لتكون الجنة لأهل الإيمان، والنار لأهل الكفر والعصاة إن لم يرحمهم الله عز وجل.

❊❊❊

فضل الله على العصاة من عباده

وهنا قال: [يخرج الله العظيم بفضله من النار]، قوله هنا: بفضله، أي: أن الله عز وجل متفضل على عباده كلهم، سواءً من دخل النار واستحق العقوبة، أو من رحمه الله عز وجل وغفر له ذنبه، وأدخله الجنة مباشرة، ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام) :ما من أحد يدخل الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتداركني الله برحمته ، ولذلك الناس يدخلون الجنة بفضل الله ورحمته، ولو عامل الله عز وجل الناس بعدله ما دخل الجنة أحد، ولذلك هنا ذكر الفضل، يقول هنا:

]وقل: يخرج الله العظيم بفضله من النار أجساداً من الفحم تطرح.[

والمراد بذلك: من دخل النار من أهل الإيمان ممن استحق النار، وفيه دليل على أن بعض أهل الإيمان يدخلون النار، لأنهم استوجبوها، لأن الله عز وجل لم يغفر لهم ذنبهم ذلك، ويغفر الله عز وجل لمن شاء.

واعتقاد أهل السنة: أن أهل المعاصي والذنوب مآلهم إلى الجنة، وهم من أهل الجنة قطعاً إما ابتداءً، أو مآلهم بعد دخولهم النار إن لم يرحمهم الله عز وجل، ويعتقد أهل السنة أن أناساً من أهل الإيمان من العصاة من أهل

الكبائر يدخلون النار، وأراد بذلك إثبات مخالفة الخوارج والمعتزلة الذين يرون أن مرتكب الكبائر منزوع الإيمان وأنه خالد في النار أبداً كالكفار، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام كما في الصحيح، قال) :**يخرج المؤمنون من النار فيوقفون على قنطرة بين الجنة والنار يتقاضون حقوقاً كانت بينهم** ، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام) :**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان** ، ثم قال عليه الصلاة والسلام :)**يخرج من النار أقوام قد تفحمت أجسامهم، فيخرجهم الله عز وجل من النار فيلقيهم في نهر الحياة** ، وفي رواية) :**نهر الحيا، فينبتون كما تنبت الحبة في السيل** ، وهذا يدل على أنه لا يبقى في النار أحد من أهل الإيمان، ولكن الله عز وجل يعذب فيها من شاء بعدله.

]على النهر في الفردوس تحيا بمائه كحب حميل السيل إذ جاء يطفح.[

وهذا قد تقدم: أنهم يخرجون من النار قد تفحموا، وجاءت في بعض الأحاديث، كحديث **أبي هريرة** في الصحيح) :**إلا مواضع السجود، فيلقون في نهر الحيا** ، وجاء في رواية) :**نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في السيل** ، وذلك لكي يكمل لهم نعيم الجنة.

***

الشفاعة

إثبات الشفاعة وذكر أقسامها

]وإن رسول الله للخلق شافع وقل في عذاب القبر حق موضح.[

يقول: [وإن رسول الله للخلق شافع] : فيه إثبات الشفاعة للنبي عليه الصلاة والسلام، والشفاعة مأخوذة من الشفع وهي ضد الوتر، فالوتر هو الواحد، فإذا كان معه نظير له فإنه يسمى: شفيعاً، وذلك تسمى الشفاعة شفاعة، إذا لم يقدر الإنسان بنفسه فيستشفع بغيره فيتقوى لقضاء حاجته وما يريد، ولذلك النبي عليه الصلاة والسلام يشفع للناس يوم القيامة لكي يفصل بينهم يوم العرض،)**فيذهبون إلى آدم، فيقول: اذهبوا إلى إبراهيم، ويقول إبراهيم: اذهبوا إلى موسى وعيسى ثم محمد صلى الله عليه وسلم، فيأتي عند العرش فيسجد لله عز وجل فيدعوا الله عز وجل فيشفع للناس عند الله عز وجل أن يفصل بينهم، فيفصل الله عز وجل بينهم يوم القيامة** .

والشفاعة الأصل فيها أنها منفية إلا ما أذن الله عز وجل به، والشفاعة عند العلماء في النظر في نصوص الشرع شفاعتان: شفاعة منفية: وهي الشفاعة التي يطلبها الكفار من الأولياء، والصالحين، والأصنام، والأوثان، وذلك أنهم يرجون منها شفاعةً عند الله سبحانه وتعالى.

الشفاعة المثبتة: وهي شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام للخلق أن يفصل بينهم يوم القيامة، ولبعض الكفار، كـأبي طالب، وقيل:أنه لا يشفع لكافر إلا لـأبي طالب وقيل: لـأبي لهب ويأتي الكلام عليه، وكذلك شفاعة عليه الصلاة والسلام لبعض أهل الإيمان أن يخرجوا من النار، وكذلك شفاعة أهل الإيمان لبعضهم، فيشفع الشهيد لسبعين من أهله، ويشفع الابن لأبيه والصاحب لصاحبه، فيكون من أهل الجنة، وكذلك الشفاعة تكون بين أهل الجنة الذين لم يدخلوا النار ليصل هذا إلى مرتبة هذا فيكونون سواء، وهنا أشار إلى شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: [وإن رسول الله للخلق شافع]، أي: يوم العرض، والشفاعة كذلك العامة لأهل الإيمان.

[وقل في عذاب القبر حق موضح] : وتقدم الإشارة إلى عذاب القبر والفتنة التي تقع فيه، والنبي عليه الصلاة والسلام قد بين عذاب القبر في قصة نكته بعود لما جلس على شفير قبر، وكذلك في قول النبي عليه الصلاة والسلام) :استغفروا لأخيكم واسألوا له الثبات فإنه الآن يسأل ، ولذلك قال: [حق موضح.]

والنبي عليه الصلاة والسلام يشفع للأمم كلها بأن يفصل بينها يوم العرض، ويشفع لعمه أبي طالب خاصةً من أهل الكفر لا يشركه في ذلك أحد على الصحيح، والكفار لا يشفع لهم أحد، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ :مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ ﴾[السجدة:4]، أي: يوم القيامة، وهذا نفي عام تام ليس لهم شفيع يوم القيامة لا نبي ولا نحو ذلك من خلق الله سبحانه وتعالى.

***

شفاعة النبي لعمه أبي طالب

قال: [رسول الله للخلق شافع] : والمراد بذلك الشفاعة العامة للخلق، ويرد عليه أيضاً شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام لأهل الإيمان أن يدخلوا الجنة، وأن يخرج أهل الإيمان من النار من كتب الله عز وجل له النار، أما الكفار فلا يشفع النبي عليه الصلاة والسلام إلا لعمه **أبي طالب**، ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام) **:أنه في ضحضاح من نار يغلي منه دماغه** ، وذلك خفف عنه بشفاعة النبي عليه الصلاة والسلام له؛ لنصرته للنبي عليه الصلاة والسلام في أول أمره، فقد نافح عنه، ودافع عنه لما كان النبي عليه الصلاة والسلام في مكة، فقد وقف في وجه كفار قريش لما حبس النبي عليه الصلاة والسلام بشعب مكة، فلا يجلب له طعام هو ومن آمن معه، كان **أبو طالب** يبعث له بالطعام حمية.

قد وقع في قلب **أبي طالب** تصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا أنه لم يتبعه قولاً وفعلاً، ولذلك يقول في نونيته:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد بالتراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقر به عيونا

ودعوتني وزعمت أنك صادق ولقد صدقت وكنت ثم أمينا

وعرضت ديناً لا محالة أنه من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك يقينا

هو مصدق بقلبه لكنه ما حمله ذلك على الإيمان خشية العار، فبقي عاره إلى قيام الساعة، فإذا أراد أحد أن يمثل بأخف أهل النار عذاباً مثل بـأبي طالب، العار الحق والحقيقة هو بالبعد عن الوحي، والبعد عن الاتباع، ولذلك لحقه عار إلى قيام الساعة.

جاء في البخاري ليس على شرطه) :أن النبي عليه الصلاة والسلام قد شفع لـأبي لهب أن يسقى في النار بقدر هذه، وأشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى أسفل الإبهام ، فيكون ثمة شيء من حفرة يسيرة، قال :)يسقى بقدرها من الماء ، وذلك أنه قد أعتق مرضعة النبي عليه الصلاة والسلام وكانت أمةً عنده، لما كان النبي عليه الصلاة والسلام صغيراً لما توفيت أمه، فشفع له في ذلك فيسقى بقدرها ماءً في النار، وقد أعله بعض العلماء عليهم رحمة الله، ما عدا ذلك فلا يشفع النبي عليه الصلاة والسلام لأحد مطلقاً من أهل الكفر.

❊❊❊

التحذير من تكفير المسلمين

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين:

قال الناظم رحمه الله تعالى:

]ولا تكفرن أهل الصلاة وإن عصوا فكلهم يعصي وذو العرش يصفح[

قال: [ولا تكفرن أهل الصلاة وإن عصوا]: الكفر في اللغة: هو التغطية، والمراد بذلك أنه قد غطى إيمانه وأظهر الكفر، ولذلك يسمى الكافر: كافراً، لأنه قد لاح وظهر خروجه عن الإسلام وغطى إيمانه.

حكم تارك الصلاة

قال: [أهل الصلاة]: فيه دليل على أن المصنف عليه رحمة الله تعالى يميل إلى كفر تارك الصلاة، وهذا الذي عليه الصحابة والتابعون، والأدلة في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة، من ذلك: ما رواه الإمام مسلم من حديث أبي الزبير عن جابر بن عبد الله :أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال) :بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة ، وكذلك

ما رواه الإمام **أحمد** و**الترمذي** و**النسائي** و**ابن ماجه** من حديث **عبد الله بن بريدة** عن أبيه: أن النبي عليه الصلاة والسلام قال) :**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر** ، وهذا الذي عليه إجماع الصحابة عليهم رضوان الله تعالى، كما روى **الترمذي** و**محمد بن نصر المروزي** من حديث **الجريري** عن **بشر بن المفضل** أن **عبد الله بن شقيق** قال: ما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة، وهذا حكاية إجماع عن الصحابة، وكذلك قد أجمع عليه التابعون كما روى **محمد بن نصر** من حديث **حماد بن زيد** عن **أيوب** أنه قال: ترك الصلاة كفر لا نختلف فيه.

وأما ما يحتج به البعض عند **ابن ماجه** و**الحاكم** من حديث **حذيفة بن اليمان** :أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال) :**يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يدرى ما صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا نسك، إلا أقوام يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله، كنا نسمع آبائنا يقولونها فنقولها** ، قيل لـ**حذيفة** :ما تفعل بهم لا إله إلا الله؟ فقال: تنجيهم

من النار لا أبا لك! احتج به البعض عن عدم كفر تارك الصلاة، وهو بموطن حجة؛ ولذلك ورد أنه قال في الخبر: (لا يدرى، أي: أنه لا يعلم أن ثمة صلاة، وهذا ما يسمى: بالعذر بالجهل.

قال: [وإن عصوا]: تارك الصلاة كافر عند الصحابة والتابعين، والخلاف إنما طرأ بعد ذلك، ولا أعلم أحداً من السلف قال بعدم كفر تارك الصلاة سوى ما روي عن الزهري وهو أول من صرح في هذا، وبعد ذلك نشأ الخلاف، وعن الإمام أحمد عليه رحمة الله تعالى أنه نص بكفر تارك الصلاة، والصواب أن تارك الصلاة كافر.

حكم التهاون في أداء الصلوات المفروضة

ومن صلى حيناً وترك حيناً كمن يصلي صلاتين في اليوم أو ثلاثة ويترك البقية، فإنه مسلم مذنب مرتكب كبيرة وليس بكافر، لأنه قد روى الإمام أحمد في المسند من حديث قتادة عن نصر بن عاصم :أن رجلاً حدثهم) :أن قوماً جاءوا للنبي عليه الصلاة والسلام فاشترطوا أن يدخلوا في الإسلام وأن يصلوا صلاتين، فأذن لهم النبي عليه الصلاة والسلام

وعقيدة أهل السنة والجماعة ألا يكفروا أحداً بذنب ارتكبه ما لم ينقض إيمانه بناقض، ولذلك قال: [ولا تكفرن أهل الصلاة وإن عصوا]: ما دام أنهم يؤدون الصلاة وقبلتهم قبلتنا، فليس لك أن تكفرهم بذنب وإن عصوا خلافاً للخوارج والمعتزلة، فالمؤمن إن ارتكب المعصية وأذنب لا يكفر بذلك ما لم يقع في الشرك والكفر، وقد ذهب الخوارج والمعتزلة إلى كفر فاعل الكبيرة.

قال: [فكلهم يعصي وذو العرش يصفح]، أي: ما من أحد إلا ويعصي، وعلى هذا يقال بكفر وردة الناس عامة، وهذا ليس من معتقد أهل السنة والجماعة، بل يقال: بأنهم أهل إيمان وإسلام ولكنهم مقصرون، والإيمان أعلى مرتبة من الإسلام، قال: [فكلهم يعصي]، أي: كل الناس يعصون [وذو العرش يصفح]، فما من أحد من الناس إلا وله حظ من المعصية، والله عز وجل يغفر ويتوب لمن تاب.



رأي الخوارج في مرتكب الكبيرة

]ولا تعتقد رأي الخوارج إنه مقال لمن يهواه يردي ويفضح[

الخوارج يرون كفر فاعل الكبيرة، ويرون أن من فعل الكبيرة أنه خارج عن الإسلام وخالد مخلد في النار، وأهل السنة وسط بين الخوارج والمرجئة، فالمرجئة يرون أن الإنسان لا يكفر بعمل، والخوارج يرون أنه يكفر بالمعصية والكبيرة، وأهل السنة يرون أنه لا يكفر إلا بما دل الدليل على كفره، ولذلك لا يكفرون أهل القبلة بذنب، والخوارج إنما سموا: خوارج؛ لأنهم خرجوا عن منهج أهل الإسلام في هذا الباب، وهذا هو منهج الخوارج والمعتزلة.

يقول: [مقال لمن يهواه يردي ويفضح]، أي: يردي الإنسان ويجره إلى الحكم بردة شاملة للناس، وأهل السنة الوارد عنهم أن من ترك شيئاً من الواجبات لم يدل دليل على أن تاركه كافر أنه لا يكفر، ولذلك يقولون: إنه لا يلزم من ترك الواجب بغض إيجابه، ولا يلزم من فعل المحرم بغض تحريمه، خلافاً للخوارج فإنهم يقولون: إن من ترك الواجب دل الدليل على أنه أبغض إيجابه، ومن فعل المحرم دل على أنه أبغض تحريمه فهم

يكفرون باللازم، وأهل السنة لا يقولون بذلك: لأن الإنسان ربما يغلبه هواه فيفعل الكبيرة لا بغضاً للتحريم، ويترك الواجب لا بغضاً للإيجاب ولكن تفريطاً واتباعاً للهوى، ولذلك كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشرب الخمر ويزني ويجلد ولا يقام عليه حد الردة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول كما في الصحيح من حديث عبد الله بن عباس) :من بدل دينه فاقتلوه .

حكم من ترك ركنا من أركان الإسلام

ومسألة أركان الإسلام، من ترك شيئاً منها من الصيام والزكاة والحج، أما الصلاة فتقدم الكلام عليها فثمة قول لأهل السنة أن من ترك شيئاً منها فهو كافر، وهذا قول معروف قال به غير واحد من السلف كسعيد بن جبير ونافع مولى عبد الله بن عمر والحكم بن عتيبة وابن حبيب من المالكية وإسحاق بن راهويه، بل قد ذهب إسحاق بن راهويه عليه رحمة الله إلى أن من قال بعدم كفر من ترك شيئاً من أركان الإسلام الخمسة أنه مرجئ، فيرى أن من لم يكفر تارك الزكاة وتارك الصيام أنه مرجئ، وهذه

رواية ـ أي: كفر من ترك شيئاً من أركان الإسلام ـ عن الإمام **أحمد** عليه رحمة الله.

وجماهير السلف على عدم كفر من ترك شيئاً من أركان الإسلام، سوى الركنين الأولين، وذهب إلى هذا **أبو داود** عليه رحمة الله تعالى، فيرى في مسألة الصلاة، من لم يكفر تارك الصلاة أن فيه بذرة إرجاء، كما في تراجمه في السنن.



الإيمان

مذهب المرجئة في الإيمان

]ولا تك مرجياً لعوباً بدينه ألا إنما المرجي بالدين يمزح[

قال: [ولا تك مرجياً]: المرجي: مشتق من الإرجاء، وأرجأ الشيء إذا أجله وأخره، وكأنه أخر الإنسان ودفعه من الكفر عن الكفر إلى الإيمان وأبقاه فيه، وقيل: إنه أرجأ أمره إلى الآخرة ولم يحكم فيه.

طوائف المرجئة

والمرجئة هم شر المذاهب، بل قيل: إنهم شر من الرافضة والخوارج؛ وذلك أنهم قد لعبوا بالدين فلم يطلقوا على أحد كفراً، وهم على مراتب:

الطائفة الأولى: غلاة المرجئة الذين يرون أن الإيمان محله القلب فقط، التصديق القلبي، وأن الإنسان إن كفر بلسانه أو بجوارحه أنه لا يكفر، وهؤلاء شر الملل والنحل، واليهود والنصارى خير منهم، وذلك أنه بقولهم ذلك يلزم منه إدخال إبليس في الإسلام والإيمان، وإدخال فرعون وهامان وإدخال كفار قريش، وأنه لا يدخل في الكفر أحد أبداً؛ وذلك أنه

ما من أحد إلا ويؤمن بربوبية الله سبحانه وتعالى، فإبليس آمن بقلبه قطعاً وصدق لكنه كفر بلسانه وجوارحه، فهو يعلم يقيناً أن الله عز وجل واحد والمستحق للعبادة، فهو على قول المرجئة أنه مؤمن.

كذلك فرعون مؤمن بصدق موسى عليه الصلاة والسلام وأن ما جاء به هو الحق، فلما أدركه الغرق قال ﴿ :آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ ﴾[يونس:90]، خرج ما في قلبه على لسانه لما أدركه الغرق، ولذلك جبريل كان يقول للنبي عليه الصلاة والسلام كما في الصحيح) :لقد رأيتني يا محمد وإني لآخذ التراب وأضعه في فم فرعون خشية أن تدركه رحمة الله .

وعلى هذا القول، يلزم منه إدخال كفار قريش أيضاً في الإسلام، والله عز وجل قد وصف حال كفار قريش في مقابل دعوة محمد صلى الله عليه وسلم أنهم مصدقون بقلوبهم، فقال الله عز وجل عن حالهم ﴿ :وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[النمل:14]، ما الذي استيقنتها أنفسهم؟ هو بتصديق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، بل من نظر إلى كلام أبي طالب عم النبي عليه الصلاة والسلام، ونظر إلى تصديقه الذي

بدا على بعض كلامه بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فعلى قولهم هذا: يلزم أن يكون مؤمن، لأن الإيمان محله القلب.

فعليه: كل من آمن بقلبه وصدق بالشيء وإن كفر بلسانه وجوارحه فإنه مؤمن، وعلى هذا: كل الكفرة الذين حكا الله عز وجل أنهم في النار، وكذا النبي عليه الصلاة والسلام، أنهم لا يدخلونها على قولهم، وهذا شر المذاهب على الإطلاق، ولذلك أبو طالب مدح النبي عليه الصلاة والسلام ويبين أنه صاحب دعوة حق، بل ناصر النبي عليه الصلاة والسلام وما منعه من اتباعه إلا العار، يقول:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد بالتراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقر منه عيونا

ودعوتني وزعمت أنك صادق ولقد صدقت وكنت ثم أمينا

وعرضت ديناً لا محالة أنه من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك يقينا

على هذا يكون أبو طالب من أهل الإيمان ومن أهل التصديق، فإيمانه كإيمان جبريل وميكائيل، لأنه قد آمن بقلبه وكفى، والنبي عليه الصلاة

والسلام يقول: هو في ضحضاح من نار يغلي منهما دماغه، نعوذ بالله من ذلك!

وهذه الفئة من المرجئة هم الذين ذهبوا إلى شر ما لم تذهب إليه ملة أو أصحاب شريعة كاليهودية والنصرانية، بل إن اليهود والنصارى خير منهم فهم أقرب إلى الإلحاد، وذهب إلى هذا من الملاحدة ابن هود وابن سبعين والتلمساني وغيرهم.

ثم الطائفة الثانية من المرجئة: الذين قالوا: إن الإيمان هو اعتقاد بالقلب وقول باللسان، فيرون أن عمل الجوارح لا علاقة له بالإيمان، وأن الإنسان لا يعاقب عليها، وإنما تزيد من عمل الإنسان مرتبةً في الجنة فحسب، وإلا هو يدخل الجنة وينجوا من النار باعتقاد قلبه وبقول لسانه، مع قولهم: إنه لو نقض قول لسانه بقول آخر لا يحاسب عن ذلك حتى يسأل ويقرر عما في قلبه، فهم أخرجوا العمل كله من الإيمان.

والطائفة الثالثة من المرجئة: الذين يقولون: إن الإيمان قول واعتقاد وعمل، إلا أنهم يرون أن الإنسان إن ترك العمل بالكلية لا يكفر، مع أنهم يرون أن العمل من الإيمان، أي: من كماله، يكمل بذلك إيمان الإنسان،

وفرقهم عن الطائفة الثانية: أن الثانية يقولون: إن الإيمان تام بالقول والعمل، ولكنه يزداد حظوةً وقربى كلما ازداد عملاً وإيمانه كامل، أما الثالثة فيرون أنه من كمال الإيمان، وإن انتفى عمله بالكلية فإنه ليس بكافر.

مذهب أهل السنة والجماعة في الإيمان

ومذهب أهل السنة والجماعة: أن الإيمان قول وعمل واعتقاد لا فرق بينها، فإن انتهى واحد منها كفر الإنسان، وأن الإيمان لا يمكن أن يقوم إلا على هذه الثلاثة، فلا يقال: إن العمل شرط للإيمان ولا كمال له بل هو الإيمان، وهذه مسألة لا يتطرق لها الكثير: من أن الإيمان شرط للعمل، فكأنه قد أخرج ضمناً العمل من الإيمان، بل يقال: إن العمل هو الإيمان، والقول هو الإيمان، والاعتقاد هو الإيمان، فلا بد من هذه الأركان أن تتوفر في إيمان الإنسان حتى يكون مؤمناً، وذلك كالصلاة: لا تكون صلاةً حتى يكون فيها ركوع وقيام وسجود، فإن انتفى وامتنع للقادر شيء منها لا تسمى صلاةً، فلا يقال: هذا شرط وإنما هي من ماهيتها وحقيقتها.

وما هو العمل الذي هو من الإيمان، ولا يتحقق إيمان الإنسان إلا بوجوده؟ هو ما اختصت به شريعة محمد صلى الله عليه وسلم عن غيره، قد يقول قائل: أن العمل لا بد منه لكي يتحقق الإيمان في قلب الإنسان، فأي عمل نريد؟ قد يقول: أن ذكر العمل هنا من الخلاف اللفظي، إذ أنه لا يمكن لأحد إلا ويعمل، كل يبذل سلام وتحية ويتصدق ويحسن، فما من أحد - حتى الملحد - إلا ويبذل خيراً، فيبر أمه ويحسن لجاره، يبذل تحية، يرحم ضعيفاً، يتصدق، هل هذا هو العمل المقصود؟ لا، المقصود هو عمل اختصت به شريعة محمد صلى الله عليه وسلم عن سائر الشرائع، فمما اختصت به الصلاة والصيام والحج والعمرة، وغير ذلك من أعمال الطاعات التي اختصت بها شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فلا بد منها.

ولسوء فهم البعض، يقول: أنتم تقولون: إن العمل من الإيمان، ولذلك يكثر اللغط والقول في هذا والخلاف لفظي، حيث أنه لا ثمرة لذكر العمل هنا، فبما أنكم تقولون: أنه لا يكفر أحد بشيء من الأعمال إلا الصلاة، والصلاة موطن خلاف عند العلماء، هل يكفر صاحبها أو لا يكفر، وإذا

قلنا: أنه لا يكفر، فالإنسان لا بد أن يعمل جنس خير، فلا بد لأي مسلم أن يعمل خيراً وهذا معلوم، فإما أن يبر أمه أو أباه ويتصدق على أخيه، أو يسلم على جاره، ويبذل التحية ويرحم الضعيف، ويميط أذى عن الطريق، وينظف نفسه، ويفعل الأمور التي جاءت بها الفطر واشتركت فيها الشرائع كلها.

فاشتركت سائر الشرائع بالأخلاق كلها، والعلماء عليهم رحمة الله يقولون: إن ما ينسخ في الشرائع هو الأحكام، وما لا ينسخ فيها العقائد والأخلاق والأخبار، فالفضائل والأخلاق لا تنسخ، فهي باقية من آدم إلى يومنا هذا، فإن الله عز وجل إن فضّل مكاناً أو بقعة بقيت هذه مفضلة إلى آخر الدهر، وإن فضل الله عز وجل تعاملاً وخلقاً كالصدق والأمانة وإماطة الأذى عن الطريق، فإنه فضل على سائر الشرائع، لأن هذه أخلاق مفطور الإنسان عليها، ولذلك يقول الله عز وجل ﴿ :فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[الروم:30]، يقول النبي عليه الصلاة والسلام) :ما من مولود إلا ويولد على الفطرة ، الفطرة: هي الميل إلى حب الخير ونبذ الشر.

ولا عبرة بالفطر الشاذة المنحرفة التي تميل عن مواطن الخير ونحو ذلك، وإن كانت لا توجد فطرة شاذة خالصة، فلا بد أن يوجد فيها شيء من بذرة الخير، من حب خير ونحو ذلك وإن كابر الإنسان وجعل من نفسه شاذاً، إلا أنه يوجد لديه بذرة من الفطرة، ولكن هذا لا يعدل الإنسان من دائرة الكفر إلى الإيمان إلا بالعمل الخاص التي اختصت به شريعة محمد صلى الله عليه وسلم.

ولذلك يقول العلماء عليهم رحمة الله: إن من أعرض عن العمل بالكلية ولا يعمل، أي: ما اختصت به الشريعة، فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله ويعرض عن الأعمال التي أتت به شريعة محمد صلى الله عليه وسلم أنه كافر بالله، ولذلك حكم الله عز وجل بكفره بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى *وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة:31-32]، فانظر هنا! جعل التكذيب مقابل التصديق، وجعل التولي مقابل الصلاة، قال: ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى *وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة:31-32]، أي: كذب ما يجب عليه تصديقه، وتولى عن العمل الذي مثّل له هنا بالصلاة.

فالتولي عن الدين والإعراض عنه وعن تعلمه والعمل به كفر بالله سبحانه وتعالى وإخراج من الملة، فمن قال: إن الإيمان والإسلام هو قول وعمل فحسب فهو من المرجئة، ومن قال: إن الإيمان قول وعمل واعتقاد، إلا أن العمل من مكملات الإيمان، وأن الإنسان يرفع بذلك درجة ولكن لا يكفر بترك شيء من الأعمال أو بتركها كلية، فهذا قول المرجئة وليس قول أهل السنة.

قال: [لعوباً بدينه ألا إنما المرجي بالدين يمزح]: وهنا أشار إلى أن المرجئ يتلاعب بالدين؛ وذلك أنه قد جعل من دينه حظوةً لغيره وضل بنفسه، يقول النضر بن شميل :الإرجاء دين يحبه السلاطين يصيبون به من دنياهم، فإن السلاطين وأرباب الدنيا يميلون إلى الإرجاء؛ وذلك أنه لا يكفرهم أحد مهما فعلوا، ومما يحكى أن مرجئاً قابل شارب خمر فلطمه شارب الخمر، فقال: هذا جزائي أن أدخلتك الإيمان وجعلتك من أهل الجنة! وذلك لأنه جعل صاحب الكبيرة مهما يفعل ليس من أهل النار وليس متوعداً فيها، وأن الله عز وجل قد قطع به أنه إلى الجنة، وليس

المتوعد في النار مطلقاً، وهذا غاية في الضلال، وقد حذر العلماء عليهم رحمة الله تعالى من الإرجاء، والنصوص في هذا كثيرة.

الإيمان قول وعمل واعتقاد

]وقل إنما الإيمان قول ونية وفعل على قول النبي مصرح[

يقول: [وقل إنما الإيمان]: الإيمان: هو التصديق، ويكون التصديق بالقلب واللسان والجوارح، وكلها تسمى: تصديقاً، قال: [قول]: القول يختص باللسان، ويسمى أيضاً القول: فعلاً، ويسمى: عملاً، وخالف بعض الأصوليين بقولهم: إن القول لا يسمى: فعلاً، والصواب أنه يسمى: فعلاً، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العظيم ﴿ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾[الأنعام:112]، فسماه قولاً بقوله ﴿ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾[الأنعام:112]، فسمى القول: فعلاً، وقد خالف بعضهم وقالوا: إن القول لا يسمى: فعلاً وإنما يسمى: قولاً، وهذا قد يكون من الخلاف اللفظي، لكن يقال: إن العمل بالجملة يكون: عمل القلب وعمل اللسان وعمل الجوارح، أما الفعل

فأخرج بعضهم القول عن الفعل، وقالوا: إنه لا يسمى فعل، ولكنه يسمى قولاً.

قال: [ونية]: والنية محلها القلب، واشتقاقها من: النوى، والنواة محلها قلب الثمرة، وسميت: نواةً لخفائها في جوف الثمرة، ذلك أن النية محلها القلب ولا ترى في الظاهر حتى تظهر، ما الذي يظهرها؟ يظهرها اللسان والجوارح، فهي لا تظهر عياناً، لكن علامةً عليها قول اللسان وعمل الجوارح، وتسمى النية: بعمل القلب، يقول **البخاري** عليه رحمة الله تعالى في الصحيح: باب: من قال إن الإيمان هو العمل، أي: الإيمان القلبي، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العظيم ﴿ :فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[الحجر:92-93]، أي: عن: لا إله إلا الله، ولا إله إلا الله محلها القلب واللسان ويصدق ذلك الجوارح، ويقول الله سبحانه وتعالى ﴿ :تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:43]، والعمل هنا المراد به عمل القلب وعمل اللسان وكذلك الجوارح.

قال: [وفعل]: وأراد بذلك عمل الجوارح؛ لأنه قد جاء معطوفاً على القول والنية.

قال: [على قول النبي مصرح]: وبعضهم قد جعل الفعل يخالف العمل، قال: فالعمل أعم والفعل أخص، فالفعل متعلق بالجوارح والعمل متعلق بالجوارح واللسان والقلب، والذي يظهر والله أعلم أن ثمة عموم وخصوص بينها، ومن قال بالترادف فما أبعد.

قال: [على قول النبي مصرح]: ورد أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن الإسلام كما في حديث جبريل، قال) :الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، وسئل عن الإيمان، قال: الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره ، فالإسلام والإيمان متلازمان وهما بمعنى واحد إن افترقا اجتمعا، وإن اجتمعا افترقا ولا بد من توفر أركانهما في العبد إن أراد أن يتحقق فيه الإيمان.

الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي

]وينقص طوراً بالمعاصي وتارةً بطاعته ينمي وفي الوزن يرجح.[

قال: [وينقص طوراً]: والمراد بالطور هنا: التارة، أي: في الأحيان، [وينقص طوراً بالمعاصي وتارةً]، أي: الإيمان ينقص بالمعصية ولا يزيل الإيمان إلا الكفر بالله سبحانه وتعالى، أما بالمعصية فإنه ينقص، ونقصانه بحسب عمل القلب، فإن وقوعه في المعصية مجرداً عن عمل القلب لا ينقص إيمانه ما لم يصاحب ذلك نية، فإن الإنسان قد يفرط في الصلاة وينساها، ففي الظاهر أنه ترك الصلاة، لكنه عند المحاسبة في الحقيقة لا يحاسب على فعله لأنه قد رفع عنه القلم؛ وذلك أن الإنسان يتفاوت عمله من جهة الفعل ومن جهة الترك بحسب عمل الجوارح، والناس لا يختلف أحد أنهم مأمورون بمؤاخذة الناس بالظواهر والله يتولى السرائر، ولكن نتكلم من جهة الحقيقة والتأصيل، فإن الإنسان لا ينقص إيمانه بدرجة معينة في كل عمل في الظاهر، والنبي عليه الصلاة والسلام أخبر أنه رفع القلم عن ثلاثة، وذكر منهم المجنون والناسي والصبي.

قال: [وينقص طوراً بالمعاصي وتارةً بطاعته ينمي وفي الوزن يرجح]

الإيمان عند أهل السنة والجماعة يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ولا يزيل الإيمان من قلب الإنسان إلا الكفر، وما يفسد الإيمان من نواقضه، ويزداد بالطاعات فكلما ازداد بالطاعة بلغ الإيمان، ولا يمكن أن يكمل إيمان العبد إلا وقد تحققت فيه سائر شعب الإيمان، هذا بالجملة، وقد يتحقق فيه ذلك دون ذلك ولكنه نادر.

أما الكفر فإنه يتحقق في الإنسان بوجود شعبة من شعب الكفر ولا يلزم وجود شعب الكفر كلها، فلو كان الرجل فيه سائر شعب الإيمان إلا شعبة قد نقضها بشعبة كفر فإنه يكفر بذلك، وهذا الفرق بين شعب الكفر وشعب الإيمان، وذلك أن الإنسان يبلغ كمال الكفر بشعبة واحدة ولا يبلغ كمال الإيمان إلا بتوفر الشعب كلها، ولذلك يجهل الكثير أن الإنسان كيف يكفر وهو يذكر الله ويصلي ويصوم ونحو ذلك إذا ظهر منه مكفر، فيقال: كيف يكون فلان كافراً ونحن نراه يصلي ويزكي ويصوم ونحو ذلك؟! بينما قد وجد فيه شعبة من شعب الكفر التي تخرجه عن الإيمان كتكذيبه بشيء

من الوحي أو جحده لشيء مما تواتر أو استهزائه بالله وآياته ونحو ذلك.

فبهذا يتحقق الكفر كله في قلبه، ويكون قد وصل إلى أدنى دركات الكفر بشعبة واحدة، والكفر ملة واحدة، والإيمان لا يمكن أن يتحقق إلا بتوفر سائر شعب الإيمان، خلافاً للمرجئة الذين يقولون: أن من كان من أهل الإيمان وتحقق إيمانه وثبت على قولهم، فإن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل، وأنهم في الجنة سواء، وهذا لا شك أنه قول شر.

***

وجوب اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وترك قول ما عداه

]ودع عنك آراء الرجال وقولهم فقول رسول الله أزكى وأشرح[

يقول: [ودع عنك آراء الرجال]: وذلك أنه لا حجة في قول أحد أياً كان، فإذا كان الصحابة عليهم رضوان الله تعالى يخفى عليهم شيء من أقوال النبي عليه الصلاة والسلام، وجاز ذلك على الصحابة فمن جاء بعدهم من باب أولى، ولا حجة بقول أحد غير النبي عليه الصلاة والسلام، فنحن

مأمورون باتباع الكتاب والسنة لا باتباع غيرهما، والإنسان يستأنس بقول الصحابة ويستأنس بقول أئمة الإسلام، ولكن هذه الأقوال لا تكون حجةً وفيصلاً.

فمن جعل أحداً من الناس حجة بقوله ويعزم ويحكم ويجعله كالوحي، فهو من الذين فرقوا دينهم شيعاً، وهو من شر أهل الفساد اعتقاداً، وفيه شبه من اليهود والنصارى الذين ﴿ :اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾[التوبة:31]، ولذلك أمر الله عز وجل بالتحاكم إليه والتحاكم إلى رسوله عليه الصلاة والسلام، ويقول الله عز وجل في كتابه العظيم ﴿ :فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النساء:65]، فيشترط لإيمان الإنسان: أن يتحاكم إلى الله ورسوله وألا يتحاكم إلى غيره مما هو من حق الله عز وجل، ويشترط أيضاً: أن يسلم تسليماً فيرضى في ظاهره وباطنه.

وأما الكره الفطري الذي في قلب الإنسان، فإن الإنسان لا يؤاخذ عليه، ولذلك أثبت الله عز وجل للإنسان كرهاً يقابل الفعل وهو كره فطري لا

اختيار للإنسان فيه، يقول الله عز وجل في كتابه العظيم ﴿ :كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ ﴾[البقرة:216]، والمراد بالكره: أن الإنسان هنا يحب الحياة ويكره التعرض للموت والجراحات ونحو ذلك، لكنه لا يعمل بذلك الكره.

والنبي عليه الصلاة والسلام قد بين أن من أفضل الأعمال إسباغ الوضوء على المكاره، والمراد بالمكاره هنا: أي الإنسان يفعل ذلك وهو كاره، كأن يتوضأ الإنسان على وضوء فيتوضأ لكل صلاة، فإن ذلك ثقيل على النفس فيكرهها، لكنه لا يطاوع هواه لأنه يميل إلى الراحة والدعة، وقال بعضهم: إن معنى ذلك: أن يتوضأ في يوم بارد، فإن النفس تكره ذلك، وإن كان ذلك فإن هذا لا يؤثر على إيمان الإنسان.

كذلك إن كره الإنسان دخول الإسلام لأمر فطري كأن يكون على ملة غير الإسلام كاليهودية والنصرانية والبوذية ونحو ذلك، فأراد أن يدخل الإسلام فيدخله وهو كاره خشية أن يعير أو يسب من قومه، فإن هذا لا يؤثر عليه، روى الإمام أحمد في المسند) :أن رجلاً قال له النبي عليه الصلاة والسلام له: أسلم، قال: يا رسول الله! إني كاره، قال: وإن كنت

كارهاً ، لأن ذلك لا يؤثر، والإنسان مأمور باتباع الوحي من الكتاب والسنة، لا أن يقلد في دينه رجالاً من دون النبي عليه الصلاة والسلام.

فإذا كان الصحابة أعلى منزلةً وأفضل هذه الأمة وأقربهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام فأقوالهم ليست بحجة، ومن قال: إن أقوال الصحابة حجة ووحي فإن هذا غاية البطلان بل هو كفر بالله سبحانه وتعالى، أما من قال: إن قول الصحابة حجة وليس بوحي فقد قال به بعض علماء الإسلام وليس بصواب، فإنه ما من أحد من العلماء إلا وله زلة وقد خالف السنة، فما من أحد من الصحابة إلا وقد جهل من سنة النبي عليه الصلاة والسلام شيئاً، وما من أحد من أئمة الإسلام كالأئمة الأربعة وغيرهم إلا وقد غاب عنه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام شيئاً وأشياء، فإذا علم ذلك علم أن قولهم يستأنس به ولكنه لا يكون حجةً قاطعة.

يقول: [فقول رسول الله أزكى وأشرح]: أزكى أي: يزكي النفوس وبه تزكوا، ولا تزكوا بقول غيره، وقيل: زكا فلان، أي: إذا نما وارتفع في الخير، قال: [وأشرح]: وأشرح للصدر، وذلك أن الإنسان إن اعتمد على قول غير النبي عليه الصلاة والسلام وأخذ به مع ظهور كلام النبي عليه

الصلاة والسلام فإن نفسه لا تطيب؛ لأنه يكون من جملة المتعصبة المنابذين لكلام النبي عليه الصلاة والسلام، ومن قال: إن أقوال العلماء حجة وإنه يسوغ للإنسان مخالفتهم مع ورود الدليل فتلك زندقة، وأما من يتتبع قول فلان وقول فلان وقول فلان ليأخذ من هذا رخصة ومن ذلك رخصة، حتى يكون له بذلك دين، فذلك بعد عن الحق وزندقة، يقول العلماء: من تتبع الرخص فقد تزندق، لأنه جعل له ديناً من كل واحد.

الفرق بين التقليد وتتبع الرخص

والعلماء الذين يتكلمون على التقليد وأنه يسوغ للعالم أن يقلد، لم يسوغوا له أن يقلد بهواه على التسليم بقولهم بجواز التقليد على الإطلاق، لم يقولوا: إنه يقلد ما يشاء ومتى شاء بهواه، ولكنه يقلد تديناً لا يقلد لهواه، وإذا احتاج لأمر علم أن فلان أباح فمال لقول فلان، فإنه قد يقلد واحداً ويأخذ بقوله، لا أن يأخذ من هذا جوازاً، فإن علم أنه قال بحرمةٍ تركه إلى الآخر، فيأخذ من كل مسألة أهونها وأقربها إلى نفسه، يقول الشاعر:

الشافعي من الأئمة قائل اللعب بالشطرنج غير حرام

وأبو حنيفة قال وهو مصدق في كل ما يروى من الأحكام

شرب المثلث والمربع جائز فاشرب على أمن من الآثام

والحبر أحمد حل جلد عميرة وبذاك يستغنى عن الأرحام

وأباح مالك الفقاح تكرماً في بطن جارية وظهر غلام

فاشرب ولط وازن وقامر واحتجج في كل مسألة بقول إمام

هذه هي الزندقة والإلحاد: أن يجعل الإنسان له ديناً في الإباحة في كل محرم، فيحتج بقول فلان وفلان، وقد يعذر ذلك الإمام لأنه قد استفرغ وسعه في تتبع الدليل ولا يعذر مقلده، وذلك أنه قلد لهواه وهذا ميل عن الحق، والله عز وجل إنما أمر بطاعته وطاعة نبيه عليه الصلاة والسلام.

❊❊❊

الطعن في أهل الدين لهو ولعب بالدين

]ولا تك من قوم تلهو بدينهم فتطعن في أهل الحديث وتقدح[

يقول:

]ولا تك من قوم تلهو بدينهم فتطعن في أهل الحديث وتقدح[

هنا يشير المصنف عليه رحمة الله إلى أن من يطعن في أهل الحديث وهم أتباع سنة النبي عليه الصلاة والسلام، أنه رجل يلعب بدينه، وما أراد حقاً وما أراد صواباً وما أراد امتثالاً وتعبداً وإنما يلهو ويلعب بدينه، ولذلك يقول: [ولا تك من قوم تلهو بدينهم]، أي: جعلوا دينهم لهواً ولعباً كما فعل أسلافهم الذين استهزءوا بسنة الله سبحانه وتعالى في خلقه التي أوحاها الله عز وجل إلى أنبيائه، ولذلك من طعن في أهل الحديث بالإجمال أنه يغلب عليه أنه لا يكون من أهل الإسلام أصلاً؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يجمل طعناً في أهل الحديث ويكون مراده ذواتهم، فهم لا يشتركون إلا بالسنة، وإنما سموا بذلك لاقتفائهم لأثر النبي عليه الصلاة والسلام، والنبي عليه الصلاة والسلام قد امتدح أتباعه، يقول عليه الصلاة والسلام) :نضر الله امرئً سمع مقالتي فوعاها فبلغها، فرب

مبلغ أوعى من سامع ، ويقول عليه الصلاة والسلام) **:بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ولا تكذبوا علي فإنه من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار .**

والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والتبليغ عنه هو خير العلم وخير الفضل، وأتباعه عليه الصلاة والسلام هم أهل الحديث وهم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة الذين أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عنهم بقوله كما في الصحيح) **:لا تزال طائفة من هذه الأمة ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي الله وهم على ذلك،** فمن طعن فيهم أو قدح فيهم أو عيرهم، فإنه على الأغلب ما قصد إلا سنة النبي عليه الصلاة والسلام وقصد الوحي، فهو حينئذ يكون ممن تلهى بدينه وتلاعب وليس هو على الحقيقة.

***

لزوم هذه العقيدة هو لزوم لمنهج أهل السنة

]إذا ما اعتقدت الدهر يا صاح هذه فأنت على خير تبيت وتصبح[

هنا ختم المصنف عليه رحمة الله منظومته بتنبيه: أن هذه العقيدة إن اعتقدها الإنسان فهو على خير يبيت ويصبح، وقوله: [اعتقدت]: مأخوذ من العقد، وهو دليل على شدة الإبرام والمسك، لهذا يقال فيما يبني به الإنسان اعتقاداً، أي: أنه قد ربط جأشه وعقيدته فيها، ولذلك قال: [إذا ما اعتقدت الدهر]، أي: لزمت ذلك، فقال: [الدهر]، أي: تبقى على ذلك على الدوام فلا تحيد عنه، فأن يكون الإنسان على الصواب هو أمر هين، لكن المداومة عليه أصعب، ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام لما سأله الثقفي، قال) :دلني على عمل في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك؟ قال: قل: آمنت بالله فاستقم .

قال: [إذا ما اعتقدت الدهر يا صاح هذه]: يا صاح يعني: يا صاحبي، [فأنت على خير تبيت وتصبح]، أي: أنه متى ما جاءك أجلك من الله سبحانه وتعالى الذي لا تتقدم عنه ساعة ولا تتأخر، فأنت على خير وأنت على هداية، وأنه إن ختم لك بذلك فإنك على توفيق ورشاد.

وقد جاء عن المصنف عليه رحمة الله أنه قد ختم مؤلفه هذا بقوله: هذا قولي ـ يعني: عقيدته ـ هذا قولي وقول والدي وقول الإمام أحمد وسائر

العلماء ممن أخبرنا عنهم، ومن أخبر بغير ذلك فقد كذب، وذلك أن عقيدتهم هذه، والمصنف عليه رحمة الله في عقيدته هذه قد جرى على منهج أهل الإسلام والسلف أهل السنة والجماعة حذو القذة بالقذة، وجاء بالإجمال وترك كثيراً من التفاصيل التي ربما لا يحتاج إليها البعض، فأغنت الطالب والمتعلم وكفت العالم.

فينبغي لطالب العلم أن يعتني بها حفظاً ومدارسة، والنظر فيها مداومةً حتى يسلم له دينه.

وبهذا نكتفي بهذا الشرح وهذا التعليق، وأسأل الله عز وجل أن يجعلني وإياكم ممن يستمع القول فيتبع أحسنه، ويسلك بي وبكم منهجاً قويماً وصراطاً مستقيماً.

الفهرس

جمعها بتوفيق الله محمد أبو عمر الحجاجي

هذا الكتاب هو ثمرة جهد مميز في جمع وتفريغ محاضرات الشيخ عبد العزيز الطريفي التي تناولت شرح منظومة 'حائية ابن أبي داود 'في العقيدة الإسلامية. يقدم الشيخ في هذا العمل شرحاً عميقاً ومُتقناً يعكس فهمه الرفيع والدقيق، مستخدماً أسلوباً بليغاً يسهل على طالب العلم الارتقاء بفهمه واستيعابه.